الأعمال الإبداعية

مكتبة 2000 الأسرة

سارق الكحل

قصص قصيرة

يحيى حقي

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سارق الكحل

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : حاملة المصباح التقنيه : زيت على سيلوتكس
مقاس العمل : ١٠٠ × ٨٠ سم رقم السجل : ٥٢٤٥

تحية حليم (١٩١٩)

إحدى رواد الحركة التعبيرية الحديثه فى الفن منذ النصف الثانى من الخمسينات ، واحتلت فى الستينات مكانا مرموقاً حين أولت جل اهتمامها للتأكيد على عناصر الرسم التى تبلور الروح الشائعة فى أبجديات الشخصية المصرية.

وقد منحتها رحلاتها فى الجنوب ، وفى الواحات ، وفى الريف المصرى الكثير من المفردات التى اشتغلت بها. لقد كان اللون البنى المعتم ، والمحروق ، وتهشيرات السطح ، والخربشات المتعمدة ، وموضوعات النيل ، والقوارب ، والأنتظار مع لمبة الجاز ، سببا فى إصباغ لوحاتها بذلك الطابع الشجى ، العذب ، الحزين ، الذى طالما طبع المصريين فى ملاحمهم الشعبية .

قطاع الفنون التشكيلية

سارق الكحل

يحيى حقي



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

سارق الكحل
يحيى حقى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

كأن

(١)

أحسست في غموض وأنا خارج من البيت كأنني وضعت نفسي في حقيبة قفلتهـا وتركتهـا به ، ليس المرى لاصقا بجسدى بل بروحى ، ماضقت بحيـاتى (هـكذا كان يبـدو لى) ولا مضيت هائمـا على وجهى بارادتى ، بل بالعكس ، لم يكن خروجى عن ملل ولابغير مقاومة منى ، مقاومة مبعثها شيء من برودة سرت فى كيانى ونحن فى عز الصيف ، ماهى ؟ لاشك أنها برودة الخوف . هل يمكن أن يحتل الخوف قلوبنا على غير وعى منا ؟ دائما وجدتنى فجأة مسوقا الى أن أبدأ مبارزة شد الحبل على اسم ، مجرد اسم لم أكن رأيت صـاحبه من قبل ، لاأعرف سحنته أو وزنه وطوله وعرضه ، ولكنى قرأت عنه فى الصحف منذ عدة أسابيع ، فى لحظة كأن القدر اختارها لى عن عمد ، ليتنى ماقرأت هذه الأسطر المكتوبة بالبنط الدقيق فى نهاية عمود بالصحيفة السابقة

من الجريدة • لماذا اصطادت عينى كما يصطاد الثعبان عصفورا من على الشجرة بسحر نظرته المغناطيسية الجاذبة ، المتلقفة ؟ لعل يدى آحست فى تلك اللحظة بطرف الحبل الذى مد لها ، ستأتي مبارزة الشد فيما بعد، علمت من هذه الأسطر القليلة خبره وماهى تهمته وأين سجنه ومتى ستعقد محاكمته ، وتفاصيل أخرى ضئيلة عن حياته لاتكفينى لأن أراه بمخيلتى ، لاترتسم بها الا صورة مهزوزة له ، عمره بالتقريب ، نوع ملابسه بالحدس ، أما نظرته اذا وقعت على نظرتى ، ويده اذا لمست يدى ، وجرس صوته اذا سمعته أذنى فهيهات لى أن أعرف كيف هى ، وكل كيف محتمل وغير محتمل معا ، ولا دهشة عند تكذيب اليقين للظن • ولمعة النظرة، ولمسة اليد ، وجرس الصوت •• هى أولى وسائلى وأصدقها لمعرفة انسان • ونسيت كل شىء عنه ، لا علاقة لى به ، ولما أسفر يوم المحاكمة عن وجهه بعد اندثار فى زحمة الأيام استيقظ من نومه العميق فى باطن ذاكرتى ، ونبهنى الى الموعد مع أنى لم أقرأ الصحف فى ذلك الصباح فأعلم أن اليوم هو يوم المحاكمة • أحسست فى غموض كأن مبارزة شد الحبل قد بدأت • انسان مجهول عندى يجذبنى اليه شيئا فشيئا حتى اذا

التصق جسدى بجسده شفطنى داخله ، أصبحت أنا هو ، ماضـيه ماضى ، وبقية عمره ستكون بقيـة عمرى ، واختلط الاحساس بالبرودة ـ لاشك أنها برودة الخوف ـ شعور بلذة غريبة هى انتصار نزعة قديمة لا أدرى متى بدأت ، أن أنخلع عن نفسى ، أن أضـعها فى حقيبـة أقفلها وأتركهـا فى البيت ، أن أذوب فى شخص حى آخر ، ليس شرطا ان يكون التقمص بعد الموت ، جائز جدا أن يتم أثناء الحياة ، هى لذة السفر الى بلاد مجهولة ، الى آفاق مسحورة ، الى عالم جديد ، لذة مضاعفة الحياة مثلين ، بلا انقطاع بينهما ، فلن آكف فى حيــاتى الجديدة عن القاء نظرة من بعيد الى نفسى التى تركتها ورائى داخل حقيبة قفلتها عليها ومضيت ، يقـال ان الروح أيضا تظل أياما تنظر من عالمها العلوى الى الجسد الذى فارقته ، مطروحا على الارض ، انتظر ، لازال هناك تعليل آخر لتلك اللذة ، فأنا موعود بأن أتقمص انسانا كبقية الناس ، له ماض فـذ ، لم تجن الغرائز المكتومة على مسرحى كما جنت على مسرحه ، له روعة انطلاق حمم البركان الثائر وألسنة لهيبه ، لم يكشف الشر الدفين عن وجهه فى سجلى كما كشفه فى سجله • شر مهول ، له سـحر العبقـرية ، ونداءات من ماضى

الخليقة ، جلجلة الرعد صراخها ، وجنـون الغـرائز وعبقرية الشر لها أيضا جمالها · لعين وفاتن معا ، هذا هو ماضيه الذى سيكون ماضى أنا أيضـا ، أما مستقبله فمحفوف بالخطر ، قد يقوده الى حبـل المشنقة ، كأنى شبعت الى حد التخمة من السـلم والدعـة فاشتقت الى الخطر أعيد به صدق مذاقى لطعم الحيـاة · سـأجرب كيف أسمع · ياترى نطق القاضى بالحكم باعـدامى ، كيف أعيش بعده وحيدا داخل زنزانة ، أعد الثوانى ، وبعد ذلك آكل وأشرب وأنام · كيف تشتغل أحشاء جسد يرفرف عليه الموت الأكيد ، سأجرب هذا الصراع المهول بين الأمل فى الحياة ، لايتزحزح كالصخرة ، وبين دبيب عزرائيل عن يقين خطوة خطوة نحوى ، سأجرب شعورى بالفرح حين ينفتح البـاب فأرى أن فتحـه لم يكن الا لدفع صحن الى ، وشعور الرعب حين أرى أن انفتاحه ذات مرة هى بداية السير الى حبل المشنقة ، سـأجرب كيف تنطلق من جوفى كله صرخة هى منذ الأزل عذاب الانسانية · ولماذا لايعود الزمن الى الوراء ؟ لماذا ؟ لماذا؟ لماذا ونحن نقدر أن نمـده فنمضى به قـدما الى أمام لانقدر أن نسحب مامضى منه ، ونكر معه الى الوراء ؟ لماذا كل ثانية ، كل نفس يتردد ، كل رعشة جفن ، هى

خبطة باترة من بلطة لاترحم ، لو هوت على جبل من الجرانيت لشقته ؟ هل حياتنا اذن ما هى الا فتات اثر فتات ؟ أرأيت اذن كم من تجربة فذة سأعهدها ؟ وأين؟ فى حياتى الوادعة المسالمة تجد روحى مثل هذه الذبذبات الدسمة ، كأن فى قلوبنا جميعا استهواء نحو الحدود القصوى ، نحو حافة الخطر ، نحو قلقلة الحجر الصغير تحت أقدامنا ، وهى تستند عليه ، ونحن نتسلق قمة الجبل الشاهق ، ماأشهى طعم الموت ونحن فى حضن الدفء أحياء ، ونظل بعد تذوقه أحياء ٠

أخذت أستسلم لشد الحبل بعد مقاومة أعلم أنها مخادعة وفاشلة رغم زعمى لها الصدق والعزم ٠ هذه هى تبرئة التألق لذمته أو حياء الأبى الجائع اذا دعاه غريب حقير لطعام مبذول ، مقاومة مبعثها شىء من برودة سرت فى كيانى ونحن فى عز الصيف ٠ لاشك أنها برودة الخوف ، فشتان بين نفخ البوق والتحام الجسد بالجسد فى ميدان الوغى ، وكنت أستطيع أن أقاوم ، وأن أشد الحبل نحوى فينفصل عن هذا الانسان الذى يجذبنى ، وأنفصل أنا أيضا عنه ٠ أن أخرج من بيتى فأتجه يمينا الى مكتبى وأكون قد نسيت كل شىء ، وتكون كل هذه الأحاسيس ٠ مسبوقة بكلمة «كان» أوهاما

وهواجس ، أو أحــلاما ذاب فيهــا كابوس ، تتبدد اذا
قابلت النــاس وانخرطت في عملي . سويا مع أسوياء.
ولكني وجدتني وأنا أقاوم اتقاء للشر ، وأنحرف الى
اليسار ، وأمشي نحو المحكمة . وأدخل القاعة المزدحمة ،
وأبحث حتى أجد مكانا بجوار القفص ، ثم أنظر اليه
من فرجة القضبان فأراه لأول مرة .

(٢) اللقاء الأول في المحكمة

في اللحظة التي جلست فيها الى جانبه ، ورأيت
من خــلال القضبان لاول مــرة نوع بريق نظــرته ،
أحسست ـــ ولاشك عندى أنه أحس مثلي ـــ بأننا في
مستقبل الأيام ـــ حين يتم اندماجي به . سنذكر هذه
اللحظة ، ونقول ، ونحن نتعجب ، ان لقــاءنا الأول
ـــ غريبا بغريب ـــ كان كأنه لقــاء مألوف متكرر بين
أصدقاء قدماء ، ونردد الحديث الشريف عن الأرواح
التي تتخالف ، وسـنكون كاذبين على أنفســنا ونحن
لاندرى ، سيكون لا منشأ لهذا الاحساس الا أننا نسحب
حاضرنا حينئذ على الماضي ، ونتصور أن حالنا كان
دائما هكذا ، فهــل تذكرنا الثمرة ، ونحن نأكلهــا ،
باليوم الذى كانت فيه نيئة ، تحسبها نبتت في عــز

نضوجها ، كأن فرحة الوصــول الى التمام تلغى عن الذاكرة ماسبقها من وعثاء التمهيد وعنائه · الناس لاتنظر الى الماضى بعين الحاضر ، وهــذا سر قولهم ان التاريخ يعيد نفسه ·

الحقيقة هى آن لقاءنا الأول كان كأنه فعلا بين أصدقاء قدماء ، كأننا اقتطعنا من المستقبل الذى نراه رأى العين اليوم الذى تم فيه اندماجى به ورددناه الى الوراء فولد لقاؤنا فى مهده · ومــع ذلك كانت ولادة هذا اللقاء الاول ــ ككل ولادة ــ مصحوبة بجهد شاق ، كان لابد لنــا نحن الاثنين من اجتيازه قبل آن نصــل للراحة ، من ناحية الجالس فى القفص توتر شديد بين ، ومن ناحيتى آنا تحفر متآجج مستور ·

أما هو فقد كانت له فى قبضة الوحدة المرهقة فى السجن ، وشبح المشنقة يتآرجح آمامه ، آحــلام مزمنة وسط خيالات آخرى معربدة بأن القدر سيرسل له حتما ــ ومن حيث لايحتسب آو يتوقع ــ شخصا مجهولا لديه ، يكون لقاؤه به بمثابة الفرجة فى الظلام ، قد لاينقذه ، ولماذا ينقذه ، المهم أن هذا القادم سيرد اليه صــوابه ، سيكون هذا الشخص المجهول بمقام الوتد الذى يربط به حبال خيمته التىتهدها العواصف الهوج كلما نصبها،

ينفتح بطنها ولكنها تجهض كل مرة · ستبدو له بفضله حقيقة الأشياء وسط الضباب الكثيف مخيفة ولكنها على الأقل وليدة العقل لا الهذيان ، فقد اختلطت فى ذهنه الأيام والأحداث والذكريات لايدرى كيف ومتى وأين حدث الذى حدث ، انه فى أشد الحيرة ـ الحيرة هى التى تجعل الطبق يسقط من يده ، ويخلع بنطلونه وهو يريد أن يلبس بعده قميصه ، ويظل يمضغ على الفاضى ، بعد أن يزدرد لقمته ، مسحورا بمراقبة حركة فكه الأسفل وصوت خبط أسنانه على أسنان فكه الأعلى ، ولماذا يداوم الأكل ، يستطيع الوقت أن ينتظر ، لأن وقته فى السجن مرتخ أشد الارتخاء ، كأن حباله منسوجة من رمال الجيزة التى تجعله يسأل نفسه وهو يمد قدمه : هل هى خارج باب الزنزانة أم خارج باب السجن ؟ لم لاتكون هذه تلك ؟ لم لا ؟ كل المسجونين الخائفين من الحكم عليهم بالاعدام يعيشون وهم واثقون بأن معجزة ستحدث ، سينشب حريق يلتهم ملف القضية ، ستقوم ثورة فى البلد ، سيعثرون على خاتم الملك أو طاقية الاخفاء ، بل يرضون أن تكون المعجزة هى مجىء يوم القيامة ، يبعثر القبور ويهدم الدنيا كلها ·

وما رآنى أجلس بجانبه كأننى أثب على سطح

الموج الذى يلفه ، وكأنه عارف بمكانى من قبل ، عارف بلقائى به ، وكأننى على موعد معه ومع مكانى ، حتى تملكه توقر شديد • هل هذا هو الشخص الذى همست به أحلامى ؟ هل القدر يصدق أم يعبث بى ؟

وفى لحظة خاطفة ، كأنها ومضـة البرق ، ارتفع الأمـل الى ذروته ثم هـــوى الى حضيض من الريبـة المفترسة •

من هذا الشخص الذى يقحم نفسه على دنيا ، دنياى أنا وحدى ؟ هل هو دسيسة ؟ هل يريد أن يحـذرنى بمعسول كلامه لينتزع منى اعترافى بجرائمى ؟ هـل أرسله واحد من أقارب الضحايا أو لعله واحد منهم ؟ هل سيحاول قتلى انتقاما منى ، يطعننى فجأة بخنجر أو يطلق مسدسه فى صدرى ؟ هل هو حامل لسـهم خفى يصيبنى به زفيره ؟ هل هو مجنون هارب من مستشفى المجاذيب ؟ هل هو عزرائيل يتخفى فى شكل انسان ؟ أم تراه هو روح والدى تقمص فى جسد انسان خير ، أبى ، يريد أن يخرج من قبره يزورنى ؟ هل البسملة تصده أم تستأمنه ؟

كنت أصوب اليه ــ مع الابتسام ــ نظرة شاخصة

متصلة فتتهرب عيناه منها ، ويشيح بوجهه عني ، كأنه منصرف عني بمراقبة شيء عن يمينه أو عن يساره ، ثم فجأة يغافلني ويدير وجهه نحوي • لحظة خاطفة ليعود فيلويه عني ، رأسه رأس طائرٍ مفزع ، على شجرة ، ينظر الى الخطر ، يتوجس مرة من جنب ومرة من جنب • كأن ارتداده مني يكاد يكون مرأى العين ، كان يجري الى الوراء وهو جالس ، وكأن القفص الضيق أصبح ساحة قسيمة للريح ، أدركت ، أنا الذي أكاد ألتصق به ، أنه كأنما يراني من منظار معظم مقلوب ، أي من بعيد بعيد ، كأني في آخر الدنيا ،وأنا ضئيل ضئيل ، كأنني سخطت وأصبحت عقلة الاصبع بطل الحواديت •

وكنت أعلم أن ريبته ستزول ، ولم يكن تحفزي الا لبذل جهد روحي شديد من أجل ترويض هـذه الريبة وازالتهـا • لابد أن أدعك صـلابتها لتلين ، وأعالج عقـدتها لتنفك • بالصـبر والأمانة والحيلة والرقى والتعاويذ ، فأخذت أملأ نظرتي بأشد ماأقوى عليه من الود والحنان والتطمين • على أن أجعلها شاخصة متصلة اليه بابتسامة أحيطه بها ، وأذرها عليه ، وأجلله بها كما يفعل الصياد بشبكته ، وأن أقدم له من قلبي يدا بيضاء وهمسـا حفيـا يقـول له : لاتخف ، أنا الذي

ناديته ، لن أقـدم ــ وان كان من حقى ــ على معاتبتك لأنك نزعتنى من سلام عيشى ورتابة مشاغلى ، وجررتنى اليك لتلفنى أعاصيرك ،ويكون ماضيك ماضى ومستقبلك مستقبلى · بالمشـقة والجهـد الذى عانتـه روحى فى الترويض والدعك والفك ، أحسست بارهاق ، وكنت أهم بالقيام ، واهرب ، موقظا نفسى من كابوس مخيف، منقذا لها من الأسباب نحو شفط بالوعة مآلها الى ظلمات سحيقة لا نهاية لها · وتمتمت شفتاى فى نطق العامة بكلمة «الهو» ، وكان للواو المشددة فى أذنى كأنه من نفخ الجن ، ولكنى تماسكت ، أو قل خضعت لقوة أقوى من قوتى ·

وشيئا فشيئا تبـدلت ريبته وكف عن الاشـاحة برأسه ، ومغافلتى بالقاء نظرة خاطفة ، ومنحنى وجهه ، وان جعله مخيفا نحو صـدره ، رأسه تعتمد على كفيه ، وذراعاه على ركبتيه فى جلسة استسلام وترقب مطمئن ، وان خيل لى أنه يشكو من صداع ذهنـه · حينئذ لحظت ملامحه لأول مرة وعـرفت شكل · وبدأ بيننا الحـديث بصمت خافت ، كأنه هو الآخر تحسيس يد أعمى على شىء مجهول ·

(٣) الاندماج والكلام ترجمة

المهد الذى ولدت فيه حي زينهم ـ قال لى ـ وألفته طفولتى • انه هـو الأصل فى العـالم الذى خلقه الله ، تقبلته كما هو بلا حجـة أو تعليل ، منـه أو منى ، كل ماعداه شذوذ ، أو خلل ، أو لغز ، أو اهدار للمنطق ، فكنت لاأجد الأمن الا فيه ، فاذا تجاوزته أحسست بشيء من الدهشة أو الخوف ، وعدت سريعا كأنني أهـرب الى مرفأ من بحر متلاطم لايحاط به ، تزغلل شمشمة أضوائه عينى ، وترج ضجته وهديره أعصابى •

فلو سألتنى : من هم الناس لقلت لك هم ناس حينا، أما غيرهم فمخلوقات على سبيل التجربة لم تجد وضعها الأخير بعد ، فهى تعبث بحياتها كما يعبث الطفل بالطين الخام ، وهو يريد أن يشكل منه شيئا لايعرفه بعد ، فاذا استقرت أصبحت ، ولابد ، مثلنا ، وعاشت عيشتنا ، وارتدت عن غى الى هدى • وماهو سكن الانسان ؟ لقلت لك انه فى لفلفة دروب ضيقة حتى تنتهى الى آخر بيت فى حارة مسدودة ، مستندا الى التـل ، فتجد على يمين الباب مندرة أرضها تراب ، هى التى نشأت فيها منـذ مولدى الى أن خرجت منها الى السـجن وأنا فتى يافع ، وما النهار ؟ لقلت لك انـه العتمة ، والذباب ، وأكوام

القمامة على الصفين • وما الليل ؟ هو حبسة مع الظلام والبعوض والبراغيث • وما النور ؟ هو لمبة صفيح سهارى بلا زجاجة ، ذروة تشهق بذيل طويل من الدخان المهيب ، وما الرائحة ؟ هي نفث فروة خروف ، أنفاس صوفها الملبد من فوق ، وزخمة دباغة جلدها ــ من تحت عمرها ــ هى ورائحتها ــ أطول من عمر أهلها ، لم يكن لى فراش سواها • وما الأكل ؟ الفول المدمس والنابت والطعمية والباذنجان المقلى وسلطة القوطة والبصل ومدد من بلاص عسل أسود ، وما النعيم ؟ لقلت لك انه كوب من الشاى الأسود والعين لاتزال مغمضة بعد النوم ، أو قرش تعريفة يعطيه لى أبى بين الحين والحين • وكل شيء عدا هذا كله من أناس ومسكن ، ومن نهار وليل ، من نور ورائحة وطعام ونعيم حديث خرافة ياأم عمرو •

لا سؤال لى : لم كان هذا هكذا ؟ ولم أسمع أحدا من سكان زينهم يتلفظ به ، ولكن عبر احساس مبهم غامض خيل الى أن هذا السؤال يخالطنا ، ويمشي بيننا مشية التائه الدائخ ، وان ظل مختفيا كالماء من تحت تبن ، يكشف عن وجه ، وينطق لا بكلامنا ، بل بكلام الوحش المزمجر ــ فى لحظات عابرة يعود بعدها زينهم الى الهدوء والاستسلام • من أجل هذا الاستسلام نستحق

أن نوصف بالتخلف ، بالغبـاء ، بالجهـل ، بالتواكل ، طور الله في برسيمه ، واستخفنا ـ يالفرحتنا ـ أن نكون من متاحف العاصمة التى ينصح أيضـا للسائح الغريب بزيارتها ضمن جولته ، وحبذا لو أخذ لنا صورة فوتوغرافية ، الأصل فى العالم الذى خلقه الله أصبح فى نظر المسـوخ خارج نطاقه متعة تستحق الفـرجة كالأعاجيب ، كالعجل المولود بخمس قـوائم أو الرأس المقطوعة التى تتكلم من فوق طبق ، لم يبق الا وضعنا تحت مجهر .

هذه اللحظات العابرة التى أحس فيها بزمجرة هذا السؤال (لم كان هذا هكذا) تأتى حين يسيل دم نافوخ رجل فتحه رجل آخر بسبب تافه ، ينطق الوجهان حينئذ بذروة القسوة والشر ، بصرخة السؤال المكتوم ، وحين ينشب من أجـل دلق كـوز من الماء عـراك عنيف بين جارتين فاذا بالصديقتين الحبيبتين منـذ هنيهة من ألد الأعداء ، لو طالت الواحدة لذبحت الأخرى بسكين مبتل بهذا الماء من تحت التبن .

ما ألذ وقع ألفاظ السـباب الفـاحش حينئذ على أذنى ، كانت هى أول كتـاب علمنى أسـماء الأعضـاء التناسـلية للذكر والأنثى ، بل مترادفاتها ومـواقعها

البليغة ، وكذلك عملها ووظائفها وعاهاتها ـ وهنا أيضا مترادفات كثيرة لحركات الاصبع الوسطى والذراع لها دور في التصوير والشرح • وتحديد المقاييس هذا رسم بياني لعمارة الجنس • ياخبر أبيض ، انني أيضا سطر في هذا الكتاب ، ولعلها حذفت من صفحتها

حواشي كثيرة ، ضنا بها أن يعلمها أولادها ، من أجل هذا أنفت وكرهت بل قل خفت ـ رغم اعجابي بالرسم البياني ـ أن أسكن العمارة ، وبدت لي أيامي القادمة محفوفة بتجارت عصيبة أحسست أنني لم أستعد لها ولا أدري كيف يكون حالي معها ، انغرزت في قلبي بذرةالشك في نفسي • لم أكن أعلم أنها ستورق هذه الزهور التي يقطر منها الدم • ارتبط الجنس في وجداني وذهني بالقسوة والشر والعنف ، وأيضا بمنظر المرآة وهي أقبح مثال للشراسة والفظاظة ودمامة الذوق • الوجه مشوه من شدة تقلص ملامحه على جنون • لغة العيون جاحظة من فرط التوتر ، الأنياب بارزة كالخناجر • اللثة منكشفة كبطن دمل مشقوقة مشنفرة • الصوت غجري • الكلام بذيء • التفنن الداعي في التقصع ، في التلقيح ، واختيار الموضع الذي يصيب فيه نخز الابرة مقتل الكرامة •

لا حد لقدرتها على الاعتداء ، على الغش ، على الالتهام . أظـافرها خلقت لها لتنشبها فى لحم جـاء يلتمس منها الرقة والحنان ، حتى يدمى ، هى أخطبوط لم يبق من خطاطيفه الألف الا أربعة ، هى ذراعاها ، وساقاها ، وبدونه فهى أقوى منـه على أسر الفريسـة وهصرها وامتصاصها بعـد خنقهـا ، ارتبط الجنس فى ذهنى ووجداني بحركة الخنق بالضغط على العنق ، ما أشد بجاحتها ، أى ظن لها بنفسها هـذا الفـاجرة الدعية المتعافية ، وهى لاتسـتحمل ضربة من قبضة يدك . ماأحمق غفلتها . أليس لديها مرآة لترى صورتها : ثدياها المتهدلتين من كثرة الرضاع ، وبطنها المرخى كالقربة الفارغة من كثرة الحمل والولادة والاجهاض؟ ان جسدها مخلوق للنشوة ، أفلا تشم روائحها ، أفلا تخجل من زيفها المتكرر ؟

وهمس صوت فى قلبى ، أتركها ، حد الله بينك وبينها ، اذا اقتربت منك ابتعد ، رد السلام من بعيد لبعيـد ولا لزوم للكلام ، فاذا اقتنصتك فتخلص من قبضـتها كالقرموط الميت المزفلط . ادع العجـز ، وربما لن تكون فى حاجة الى الادعاء رغم كل حيلها .

فاذا رأيت اعجابها فى الرجـل بخشونته فاصنع

نفسك أنت على الرقة والدماثة ، أو بقـوته فاجعـل جسدك لينا كالغصن الطرى . أو باستعلائه ، وثباته ، فابـد أنت للنـاس متواضـعا مسارعا الى الكسوف والخجل ، وحمر وجهك كالورد . واسـغ لأن يصفك النـاس ـ وأولهم أمـك ـ بأنك ولد كالبنت ، بأنك بنوته ، لكى تخفى كراهيتك للمرأة .

أترك هذا الجنس الآخر ، والتمس صحبة قرناء جنسك ، أنت من الصبيان ستجد عندهم راحة قليلة ، فبعض الجنس أولى ببعض .

لم أكن أعلم أننى ، دور صبية الحارة أنفرد بهذا التخبط وحدى ، وأننى بدأت أنسج حبل المشنقة الذى سيلف حول عنقى . لاشك أن طينتى كانت غير طينتهم . ولكن ما السبب ؟ ان لم أكن أستحق منكم الرحمـة فأناشدكم على الأقل أن لاتقولوا بأن هـذا السبب من اكتسـابى عن ارادتى ، من صنعى ، واتركوا لى وأنا جالس فى عذاب هذا القفص ، أنتظر صـدور الحكم شيئا من الراحة ، لبعض من الأمل بأن يكون السبب قد جاءنى بالوراثة ، أو راجعا الى خلل عضوى ولدت به ، ولست مسئولا عنه ، فى إحـدى الغـدد مثلا ،

سيزداد أمرى وضوحا حين تروى أنت عنى حكايتى مع أبى وأخى الأكبر ٠

كانت نظرتى لاتزال مصوبة باتصال الى الفتى الوديع الدمث الرقيق الجالس وراء القضبان ٠ أطلقت عليه الصحف لقب السفاح ٠ كنت أترجم عنه فى سرى كلامه الذى لم ينطق به ، لأننى كنت اندمجت به ٠ وعشت عمره كله خطوة خطوة ، حتى لأتوهم أن على ظهرى أنا أيضا آثار السياط التى انهالت على ظهره ٠ وهنا دق رئيس المحكمة بالقلم على منصته وقال : هات الشاب الأول ٠

ودخل والد أول صبى مات مقتولا مخنوقا مهتوكا ٠

(٤) المدخل الى اكتشاف التل

أعيش الآن حياته ، ماضيه ومقامه فى زنزانة بسجن باب الخلق ، ومستقبلى تتابع صفحات بيض أقحمت على أجندتى ، سقط منها طبع اسم اليوم وتاريخه ٠ ان أول صفحة مرقومة ساجدها ، ولم أعثر عليها بعد ، رغم تقليبى لبقية الأجندة بلهفة وملل معا ، هى صفحة اليوم الذى سأسمع فيه الحكم بالاعدام،

انه الغيب ملقى فى ظلام قاع بحـر عميق ، والسلسلة تربط سفينتى غائصة مختفية توهمنى أن لا حد لطولها، فحياتى حرة طليقة الحركة كحياة بقية السفن التى تحرث هـذا البحر ، اذا أحسست بقلقلة قلت انهـا من عبث الأمواج ، تتأرجح على يد ثابتة ، أرفض أن أدرك أنها من فعل هذا الغيب الذىيترصدنى ـ دون أنأراه ـ من بعيد لبعيد ، اذ هو الذى يشـدنى اليه شـيئا فشيئا ، سأقترب منـه قليلا قليلا حتى يكون اللقاء ، حتى تتم الصدفة ٠

وأصبحت أعانى من شيئين جديدين على حياتى ٠ أستيقظ من نوم ينحط فوقى كالجبـل ، يرهقنى وأنا الذى طلبته فهـو وسيلتى الوحيـدة للهروب الى باطن الأرض ٠ أفتح عينى فأجدنى تحولت الى لوح من الثلج ، روحى تحجرت من شدة البرد ، وجسدى ملفوف على محور من الصقيع ، تخرج منه أسلاك جامدة هى عروقى وشرايينى ، وأعصابى لهذا الصقيع هبو كهبو النار ، فأنا أرتعش من البرد ومن الحمى معا ، حمى باردة أو بـرد محمـوم ، اننى حينئذ ألتحف بأسفلت الزنزانة ألتمس من لسعة برده بعض الدفء ٠ ومن ندى أنفاسه بعض الترطيب ، وأنا طـول الوقت فى حضن ضجيج

لا أعرف اسمه · أيكون هو الخوف ؟ أيكون هو الموت ؟
كأن قمته هى التى أحالتنى الى لوح من الثلج ·

وثانى الشيئين الجديدين على حياتى هى الأحلام ،
أكثرها لاأذكر منه شيئا اذا استيقظت لشـدة هولها ،
لا لأننى أكون قد رأيت صورا بشعة أو تعرضت لعذاب
شديد أو لرعب كابوس ، بل لأنها خارجة عن نطاق
العقل ، كأنمـا قام عفريت مجنـون هائج بتأليفها ،
واخراجها ، وتمثيل أدوار جميع أشـخاصها ، بل انه
يتشكل فيتخذ صورة الاكسسوار المتناثر على المسرح ،
حتى الستارة هى قطعة من جلده · ولغة هذا المجنون هى
الصمت ، وان كان محبـا للثرثرة فهو يتكلم ولسـانه
مشلول ، وينطبع كلامه على كيانى كله ، لا على أذنى
وحدها ، كأنى ورقة نشاف تمتص فتتجمد عليها تخاريفه،
وقد زادت شلفطة ، هنـا احساس أنه استنبط أن جسدى
مبرقش بالبقع ·

وأقل هذه الأحـلام عفريت مجنون ، أيضـا ، هو
الذى قام بتأليفها ، ولكنه مجنون هادىء له نزعة فنية ،
لذلك فانى أذكرها فى الصباح ، سأروى لك آخر مارأيت
من هذه الأحلام ، لاأدرى أفى الليلة الماضية أم فى ليلة
سبقتها · وجدتنى عاريا فى بحيرة أبصر ساحتها لوزية

الشكل ، لونها أدنى أطيـاف اللون الأزرق ، شـفاف كصفة السماء الصافية ، وماؤها غليظ ثقيل كالزئبق، فأنا غائص ولكنى لا أغـرق ، وسـطح الماء كأنه قشرة سمكة رقيقة وذات قوام معا ، وكنت أحس طول الوقت أن هـذه البحيرة ماهى الا عـين مخلوق مارد هبط على الأرض من عالم آخر ، لا أهداب لها ولا عين له سواها ، ورغم مصارعتى لثقل الزئبق المطبق على ، أغطس وأقب فلا أنا غارق ولا أنا ناج ، ولأننى كنت أشعر براحة واطمئنان فقد خيل لى أن هذه العين تتحملنى برفق ، تريد أن تقول لى كلمة حلوة ملؤها عطف وحنـان ، واستيقظت ، لا أحس بضـيق ، بل بنشوة غـريبة لما رأيت من جمال أو من أطياف • كان جسدى أزرق ، وشـفافية وبـريق سـطح البحـيرة ، كأنه عـدسة بللورية •

كل هذا وجسدى يأكل ويشرب ويتبرز ، يعرق ويجف ، يتسخ وينظف تنمو أظافره وتقصف ، ويطول شعره ويقصر ، كأن لا علاقة بينى وبينه ، وكان لهذا الانفصام التام بيننا دهشة وعذاب ووجل • فى بعض الأحيان أجز على أسنانى لأعيد التحامى به ولو للحظة خاطفة • وخيل الى أن جسدى أصبحت له ارادة مستقلة

عن ارادتي ، فيدى تصــدر منها حــركات ليست من فعلى ، تمتد فجأة فتصدم كوب المـاء البعيد عنهـا ، وتقلبه ، وتدلقه على الطبق الذى آكل منه ، وقدمى يلتـوى ولا مطب تحتـه ، وجفني تتـكرر له نـوبات الانتفاض كأنه جـرس يدق ، وحنجـرتى تبح بغتة بلا عجلة ، وأظل أبذل جهدى فى تسليكها • وأتنحنح من أجل أن أملك صـوتى فيلفظ أنفى النحنحة رغما منى ، ويتسلى بها زمنا لايبالى ان أصبح أخنف • كان جسدى يعانى هو الآخر ماأعانيه أنا ـ بسبب الانفصال التام بيننا ـ من دهشة وعذاب ووجـل ، كأنمـا حين انفصلنا اخذ كل منـا يرقب الآخـر بعين الشر حتى لتحسبه لا شغل له ولا مشغلة الا هذه المراقبة •

لابد لى ـ لأجل أن أتنفس براحة ولو قليلا ـ أن أهرب بفكرى من حـاضر الزنزانة وهواجسها ، ولو مؤقتا ، لأعيش ماضى هذا الفتى ، وقد شاء قدر خفى أن أكون أنا هو ، وهأنذا أغمض عينى لأستعيد حياتى وأنا صبى وأعيشها يوما بيوم •

البداية خط باهت مستقيم • هأنذا صبى يمر عند الناس من أدق فرازة تحجز كل بضاعة بهـا أقل أو أخفى عطب ، طبعا بمقاييس حى زينهم • فشقوتى

لاتزيد ولا تنقص عن شقاوة بقية صبيان الحارة ·
كلامي وفهمي كلامهم وفهمهم ، وعدد الذباب الساقط
على وجوهنا وعيوننا قابل للقسمة علينا بالتساوى ،
ليس في خلقتي شذوذ بسيغ أن تلفظني العين من وسطه ·
أحب لعبة الضباط والحرامية ، وكنت دائما في جانب
الحرامية ، لاأعرف أنني أختارهم لا لأنهم الأذكى والأبرع
والأمكر ، بل لأنهم يكدحون في طلب الرزق ، ويحتالون
عليه ، بخلاف الضباط لقمتهم سهلة · وكنت أريد أن
أثبت لنفسي أنني ساكون بفضل هذه الخبرة قادرا حين
أكبر على كسب العيش بشرف ورجولة ، وكنت أحب
لعبة الاستغماية · بفضلها عرفت التل الذى يعيش حى
زينهم في حضنه وكان لى فيه يوم ليس كبقية الأيام ،
فأنا حين أنظر اليه من الزنزانة أدرك أنه لعب دورا
خطيرا وحاسما فى حياتى · كنت صعدت على التل وأنا
أجرى · وأقفز فوق الحفر وأتعرج مع التواءات
جوانبه ، حتى وجدت لى فجوة أشبه شيء بمغارة
فدخلتها ، واختبأت بها وأنا ساكن الحركة ، وان بقيت
ألهث ، هيهات أن يجدنى فيها الصبى المعصوب العينين
اذا نادى «خلاص» .فجاءه رده من بعيد «خلاص» ·

كنت لا أزال أسمع وقع جرى الصبيان على التل ،

وتدحرج الأحجار من تحت أقدامهم ، ومكثت برهة ووجهي يكسوه التهلل ولذة الترقب ، فاذا بوقع الأقدام يتضاءل ، ثم يختفي ، ويشملني السكوت والصمت ، ومر زمن طويل تأكدت بعده أن اللعبة قد انتهت ، وأنهم نسوني . فخرجت من المغارة ، والتقيت بالتل لأول مرة وجها لوجه ، لا ثالث بيننا ، شعرت أولا بالخوف بسبب وحدتي وانقطاعي ، ولكن الخوف زال حين بدأت أنظر الى التل كأنني اكتشف شيئا جديدا ، فاذا به يسحرني بانعزاله وغموضه ، وقدرته على سترك ، وتخبئتك عن أعين الناس . جبت أغلب جوانبه وكهوفه وعرفت نوع طوبه وأحجاره ،وامتحنت أرضه ، فوجدتها خليطا من تراب داكن زخم الرائحة ، وفتات طوب ونباتات عفنة لعلها بقية من قمامة . العجيب أن أنفي أحب هذه الرائحة ، وأحسست أن في بدني عرقا قد نبض لها ، وأنه لن ينبض بعد ذلك الا بفضلها أيضا ، هذه هي رائحة مخاض الأرض ، وهذه الأرض في هذا التل رخوة تلين لك ، تستطيع بلا فأس أن تحفر بها قبرا ، بأظافرك وحدها ــ ولم لا ؟ تحفر قبرا وتملأه دون أن يحس بك أحد ، حتى لو انطلقت على حافته صرخة فلن يسمعها أحد . أما المشرحة فهيهات أن

تتجاوز أذنك · لم تعد الوحدة فى التل تخيفنى ، بل وجدت فيها راحة ونعيما ، زادت قيمتها عنـدى حين غابت الشمس ، والتفت التل بظـلال بدت لى رحيمـة حانية ، علمت منذ ذلك الغروب أن هذا التل سيكون مملكتى ، ومحراب لذتى ·

(٥) آخر العنقود

كان صاحب العنب قد وجد فى قفصه عنقودا تهرأت حباته الا اثنتين ، واحدة فى رأسه ، وواحدة فى طرفه، حين مرت به أمى تسأله نصيبها ·لف العنقود فى مشيمة لئلا تراه ، وفتح بطنها ، ووضع القرطاس فيه ، وقال لها : هذه قسمتك ، لم أحـرمك كمـا فعلت بكثيرات غيرك ، فأنت ولية مسكينة ــ لن تكونى صحراء جرداء ، بلا نبت أو ظل آلة معطلة بلا نتـاج ، لن تصيبك لعنة العقم وجنونه ، لن تعوى سرا بالليل كالذئبة الجائعة ، لن تدورى بالنهار مخبولة على الأولياء كالشحاذة الذليلة، ولكنه لم يقل لها : وستبكين عشرين مرة بعـدد الحبات المعطوبة ·

نزلت الحبة الأولى وأمى فى سن الرابعة عشرة ، هذا هو بكرها ، أخى الأكبر ، ثم حملت بعده قل عشرين

مرة تجهض أو تسلم وليدها الى الغير وهو مايزال فى اللفة · بكت على كل ولد كأنها لم ترزق الا به حتى السقط له اسم ، ولما تجاوزت الأربعين ، وتقدد جلدها، وغطت التجاعيد وجهها ، نزلت الحبـة الثانية الباقية وجئت أنا للدنيا ، وكنت وأنا صبى ، حين تقول لى أمى انني آخـر العنقود ، وبينى وبين أخى الأكبر عشرون حملا مضاعا ، اتصور أننى وأنا فى بطن أمى قد أكلت أنا الحبات المتهرئة ، لقى كل اخوتى مصرعهم على يدى، كأننى خلقت لتكون لذتى الوحيدة أكل الجنين ·

ولأننى آخـر العنقود دللتنى أمى ، تجلسنى على ركبتها وترقصنى ، تأخذنى بين ذراعيها وتحضننى ولكنى أنفر منها · الترقيص يصيبنى بالدوار والحضن بالاختناق · أف ، أف ، كنت أريد الأم التى تدللنى شابة حلوة ، لحمها طـرى ، وكرهت أمى ، كيف أقبل فما تساقطت أسنانه ؟ واحتقرتها فى قـرارة نفسى : ألا تخجل هذه العجوز من أن تضجع لرجل ، كرهت من أجلها أيضا كل النساء ·· لم أنتبه وأمى تدللنى أن عينا ترقبنى بغيظ مكتوم ، هى عين أخى الأكبر ، انطبعت فى ذهنى له صورة يبدو فيها أضخم وأكبر من حقيقته، لازمنى هذا الوهم حتى الآن ، هاهو جالس فى مقعد فى

آخر قاعة المحكمة ضئيل ، ولكن يأتينى منه اشعاع قوى كأنه هبو النار، لايحفل أن يتقدم الى القفص ، ويكلمنى، ويسأل عن أحوالى يأتى تأدية لواجب مفروض عليه ، بل لعله فرحان لأننى وقعت ، وخلت له الدنيا • نظرتى لاتثبت على وجهه حتى تعدل عنه ، لايعرف أحد أن هذه النعجة الرخوة فى يد امرأته الجالسة بجواره تأتى للتسلية والفرجة بنت الكلب ، كان من أشد الوحوش ضراوة فى معاملتى ، النعجة تستأسد ، وماذنبى اذا كان أبى لم يعد مرة الى داره وهو سكران الا تحرش به وضربه ضربا موجعا ، وضرب أمى أيضا ، وكنت أختبىء فى ركن ، وأسلم من يده ، واذا عاد وهو صاح طلبنى ، وأجلسنى بجانبه ، وغافل أمى ، ودس فى يدى قرشا ، لاأدرى هل أحبه أم أكرهه ، كما أكره أمى ، ولكنى كنت رغم هذا التمزق أحس باطمئنان ، لأننى فى حماه ، من هـذه العين التى تراقبنى بغيظ مكتوم ، عين أخى • أكذب اذا قلت اننى أذكر أبى بوضوح ، هو فى ذهنى وجـه مقدد مضنى فيه ثلاثة صفوف عرضية من الثقوب ، كرسم الجمجمة على كشك الكهرباء ، وشعر كث قذر متهدل على العينين ، ملتف حول الفكين والذقن وفوق الشفة ، وجه أشـبه شىء

بالمقشة ، ورائحة بخر فم تزداد حين يكون مخمورا ، وسعال متصل بالليل ، ومن الجسد كله يخرج نزح من التعب والارهاق والعناء والشقاء ، من أجله وبسببه نفرت من أن أكون أبا ٠٠ حد الله ٠٠ ستكتفى نفسى بنفسى وعند الاضطرار سأسطو ثم أهرب ، وسأحطم من فورى كل شيء سطوت عليه ، لئلا يبقى حبلا يربطنى بواجب ٠ سأعيش حرا ، وليبق الأسر والعبودية لكل الناس ٠

صبحية موت ابى ضربنى أخى أول علقة ، تحرش بى من الباب للطاق ، تضخم شبحه حتى ملأ المندرة ، الغيظ المكتوم فى عينيه تطق وطفح ، نظرته اتقدت كالشرر ، وبانت لذراعه عضلات لم تكن له ، اندلقت الدمامة والقسوة على وجهه ٠ هل وجوه الرجال جميعا تخفى هذه القسوة وهذه الدمامة ؟ اذن لم يبق الا وجه الطفل ، هو وحده الذى يصدق فى وحيـه بالأمان . بالرقة ، بالوداعة ، بالوسامة ٠

فى تلك الليلة وأنا راقد فوق الفروة فى ركن المندرة أحسست بأننى وحيد ، منقطع عن العالم كله ، ضائع لا حمى لى ، مقهور ، عاجز ، أعلم أن روحى لن تنال شيئا من شهواتها الا فى الأحلام ، أما فى اليقظة

فبالحيلة ، بالخطف ثم الهرب . لابـد لى أن أقنع بمتعة لدقيقة ان استعصت متعة لساعة ، ولا مفر لى من أن أتستر ، أن أعيش بوجهين : وجه أمنحه للناس ، وجه ولد وديع طيب مسالم .. ووجه متقلص من عنـاء التدبر والخوف من الزلل وهتك الستر .

انبعثت من عينى دموع سخينة . المنـدرة كلها تضـغط على صـدرى ، كأنما جسدت شـبح أخى ، وأحسست بيـد عجفـاء تريد أن تربت على رأسى ، فأشحتها باشمئزاز ، وأدرت وجهى للجدار ، وأخذت أتنفس من خلاله جو التل القاتم وراءه ، تل زينهم الذى يستند اليه بيتنا ، هنا مملكتى التى أنعم فيها بالحرية بالانطلاق ، هنا ستنال روحى كل شـهواتها ، وماهى الا شهوات محددة ، قد لاتتعدى الواحدة ، هى منحق كل انسان ، وأخذت أضرب بخيالى فى جوانب التل ، وقد أصبحت أعرف كل شبر فيه ، وأنبش بأصابعى فى أرضه الرخوة ، وأتشمم رائحة ترابه التى ينتفض لها عرق من جسدى ، حتى سرقنى النوم شيئا فشيئا وغبت عن الوجود . وفى الصباح بدأت لى عادة جديدة ، أن أقضم أظافرى وأنا سارح اذا كنت وحدى .

وتوالت علقاتأخى ، وزادت قسوته . جرنى مرة

وأنا عريان كما ولدتني أمي الى قسم البوليس ، وطلب من الضابط تأديبي لأنني ولد كسلان خيبان ، قليل الأدب ، أقضى النهار الى العشاء في سرمحة بالتل ، قد أغفر لأخي قسوته الا أن يفضحني أيضا أمام الناس . قال له الضابط : كل الحارة تحبه ، وتقول انه ولد وديع شديد الحياة ، أجابه أخي : لأنك لاتعرفه . ياما تحت السواهي دواهي .

بعد شهر واحد من موت أبي كان أخي قد أخرجني من المدرسة الابتدائية ، وبيني وبين الشهادة سنة واحدة ، وأسلمني الى ترزى أتعلم مهنته ، كان يستولى على أجرى ، ولايعطيني مصروف يدى ، واذا علم أن أمي دفعت لي قرشا من وراء ظهره ضربها وضربني ، مع أنني كنت قد بلغت ، واخشوشن صوتي ، وطر شاربي .

ها أنذا أصعد التل بعد الغروب ، يدى ممسكة بيد صبي صغير من أبناء جيرة الجيرة سمح الوجه ، وديع ، يده ناعمة رقيقة . أبتسم له وروحي تئن من الضياع ، والوحدة ، والحرمان ، من معاناة الضغط والقسوة ، من انسداد كل خرم أستطيع أن أنطلق منه . لابد لهذا البركان المكتوم أن ينفجر . وكان

لأنفجاره دوى الأجـراس فى أذنى · غبت معهـا عن وعى · وبقى فى الغيبوبة مع ذلك احساس بأن روحى قد مستها شحنة كهربائية عنيفة ، تسحقها وتنفضها فى أن واحد ، فيها موتها ونشورها معا ، ونزلت من التل وحدى أقضم أظافرى ، وأذوق طعم التراب المندس تحتها ·

ولما عرفت كيف أخطو أول خطوة سرت فى الدرب بعد ذلك بسهولة واطمئنان ، كان دق الأجراس أصبح يومىء الى من بعيد ، ويدعونى الى لقائه دعوة مشتاق الى مشتاق ·

رفعت الجلسة للاستراحة · مد العسكرى حارس القفص بسيجارة اليه ، هو وكل شىء من فى السجن وراء القضبان أو خارجها ، لهم اعـزاز وحب لهـذا الفتى ، لوداعته ، ورقته ، ولكنى قطعت الحبل الخفى الذى كان يشدنى اليه لألتحم به ، وأعيش حياته ، لم أذهب للزنزانة · بل عدت الى بيتى · سألنى أهلى أين كنت ، أجبتهم : كأننى كنت فى حلم دهمنى فيه كابوس لعـين فظيع ، رأيتنى كأننى أخطـو فى تـل زينهم وبارشادى استخرجت اثنتى عشرة جثة مهتوكة لصبية صغار ، ماتوا خنقا ، وبقيت ضحايا آخرى لم يعرف

أحد عددها الا أنا ، رأيتني وكأنني ٠٠ قطعوا كلامي قائلين : أتظل طول عمــرك وليس لك قــول الا كأن مسبوقا بكلمة كأن ٠٠ تعبنا من كأن هذه ٠٠ ألا شيء عندك هو الحق والصدق والخبر اليقين ٠

سارق الكحل

الذى يلف يدى منذ الشتاء ثقل على ، وأصبحت لا أطيقه ، وقد تقدم الصيف واشتد الحر • يقول لى الطبيب انها بثور تنفرد دون بنات جنسـها الغبيات بالدهاء والحيلة ، هن يتساقطن كالذباب الدايخ على الأقوياء فتفتك بها مناعة الأجسـاد قبل أن يصرعها دواء ، أما الخبيثة الماكرة فتحوم كالعقارب على أجساد وأرواح ينخر فيها من قبل كالسوس أعـداء عتـاة ، وتصبر حتى اذا وجدت لها من الضعف منفذا تلصصت ودخلت ، وجلست وتربعت ، ونصبت سرادقها بسماجة ، ورفعت أعـلامها بوقاحة ، ومضت تبيض وتكثر على هواها ، فليس أمامهـا الا خصم متهالك ، كل سـلاح يوجه اليها ينكسر أولا فى يده •

بدأت أكره نفسى وأكره الناس ، أو بالأصح زاد كرهى لنفسى وللناس ، وهم يمدون لى يدا صافية مبرأة مجلوة ، لم أنتبه لجمال اليـد الا بعـد أن ابتليت بهذه

البثور ، ثم أتسلى بالقول لنفسى ان المصـــابة هى لحسن الحظ يدى اليسرى ، فبقيت لدى يدى اليمنى تقوم وقت الشدة مقام اليدين ، فلم يتأثر نمط حياتى كثيرا · اذا صرفت الخادم كالعادة قبل المساء استطعت أن أعد بنفسى لنفسى اللبن والشـــاى ، وجلست كمـــألوف طبعى لا على المائدة بل أمام منضدة الراديو ، على حافتها كتاب مفتوح وأغمس بيدى اليمنى قطعة من الخبز المجفف وأقضمها وأمضغها وأبلعها على مهل ، فأنا آكل وأسمع وأقرأ فى وقت واحد ، وتكون النتيجة أننى لاأفهم ماأقرأ ولا أطرب لما أسمع ولا أتلذذ بما آكل ، مع أننى أحب هذا الكتاب ، وأسير ساعة لأشترى هذا الخبز المجفف من فرن فى حارة لايعرفه كثيرون ، ولكنى اكتشفته صدفة وأبقيت خبره لنفسى وحدها لكن ·· ماذا يهم ؟!

ان الوقت يمر بسلام كأنه هدنة ويسلمنى الاعياء الى النوم ، خلوة لاأدرى أأنا ضائق بخرسها أم سـعيد بأمنها ·

وفجأة تغير نمط حياتى ، اننى أسكن الطابق الأرضى فى منزل قديم ، أما الطـــابق الثانى فهو أصـــغر ، بناه صاحب البيت «وطلاه» ، جدرانه نصف طوبة ، وسقفه ورقة سيجارة ، وحجراته الثلاث ضيقة كالحق ، وأجره

مع ذلك مرتفع فظل زمنا طويلا شاغرا ، وتمنيت أن لايجد مستأجرا فانني أحسب لمناكفة الجيران ألف حساب وفي يوم ٠٠ أحسست بضجة على السلم ، ووقع أقدام قوية تصعده خطفا على طرف حذاء يزيق ، وتهبطه دقا بالكعب: صاحب هذه الأقدام ولاشك رجل سبهللي لايضبط حركته، وسمعت كلامه مع رفيقه فاذا بصوته أجش ، يغمغم باللفظ ولايفصح به ، هذا رجل فكره المعفرت أقل صبرا من لسانه ٠

وما علمت رغم انصاتي سبب ضحكاته القصيرة المدوية كالرعد : هذا رجل هليهلي ٠٠ يضحك عمال على بطال ، وغاب عني من قبل أن أتصيد وجهه من خلال النافذة ٠

ثم حمل للبيت بعد أيام أثاثا جديدا لنج ، كأنه منديل صرت فيه كل الألوان الخفافي من بمبة وأصفر وفستقي ولبني ، فأدركت أن الشقة ستستقبل عروسين جديدين تكون أول اقامتهما فيها هي ليلة الدخلة ٠ لا أدرى لماذا ابتسمت لهذا الخاطر ، هل الفرح يعدى؟ وتحرقت نفسي شوقا لمعرفة جارى ، وشوقا أشد لرؤية عروسه ٠

وبعد أيام أيقظني على وجه الفجر وقع أقدام تصعد

السلم ، متمهلة هـذه المرة ، وسمعت همسا بين رجـل وامرأة وخشخشة ثوب ينبىء أنه فضفاض ومن الحرير الثقيل ، لاشك أنها تستند الى ذراعه فيدفعها برفق ، ثم اندلق نور الشقة فى الحجرات كلها ، وأخذت الأقدام لا تكف عن التجـوال يصحبها صـوت مقـاعد تنقل من مكانها ، ثم ساد الهدوء ، وأطفئت الأنـوار ، وأغلقت النـوافذ ، فتشاغلت عنهما وأنا أبتسم ، ونمت ويدى اليمنى تحت الوسادة تحت خدى وقد اعتزمت أمرا ٠

استيقظت مبكرا وأعـددت فطـورا جميلا لاثنين وفاكهة منتقاة ، وأرسلتها مع الخـادم على أكبر صينية عندى ، فأنا من دقة قديمة ٠ ومن عادات قومى أن يقدم الجار هكذا تحيته للجار الجديد ، ولعلى أيضا كنت متلهفا على فتح باب التعارف ٠

طرقا بابى فى أول مرة نزلا فيها معا أى بعد ثلاثة أيام لم يبرحا الدار قط خلالها ، وهكذا رأيت مصطفى ووجيهة ٠ هو شاب يميل الى البدانة ، تزداد وضوحا عند تأمل يديه البضتين الصغيرتين لاتتناسب بين حجمهما وحجم جسمه ، لاتخطىء العين حرصه على أناقته وانسجام بذلته ونظافة ياقته وقميصه ، دب الصلع فى مقدم رأسه وكأنما رش عليها من كوز عجين الكنافة شعراته القليلة ،

تحسبها ملصقة بصمغ ، يلبس نظارة طبية غليظة تضخم سواد عينيه فلاتدرى من أية زاوية ينظر اليك ، وهل هو أحول ام لا ، وأقلقنى منـه انه يجذب فجـأة وسط الحديث نفسا من أحد منخريه دون الآخر ، يتقلص على الفور خده المجاور ، وتزر عينـه وتلتفت اليهما خطفا أرنبة أنفه .

أما وجيهة فقد خيبت آمالى ،شعرها الأصفر المصبوغ بلون فاقع سوقى يموع النفس ، هائش على رأسها وفوق ظهرها ، وجهها مستدير ، ملظلظة الخد والذراع ، فى يدها أسـاور من كل صنف وشـكل ، صاحبتها سـكرى بدندنتها ، هذه هى منتهى المياقة عندها ، لو ذهبت الى زار لفقرت على صـاجات بائع عرقسوس ، ولما جلست اندك بعضها فى بعض ، وتقوست رقبتها مثل السوستة فانغرز رأسها بين الكتفين وبرز لها نهدان ضخمان .

ولكن ماضير كل هذا ، ورونق الشباب قد جللها من رأسها الى قدمها ، بشرة صافية موردة ، وعينان براقتان مرحتان ، وأسنان سليمة تلمع ، وصوت رخيم طروب ، بخار جسدها عـرف زكى ، ولمسات أصـابعها تجمع بين الضعف والحنان .

حكمت أنها ليست من طينته • أين وجدها ؟ ما الذى فتنه منها ؟ كيف طمس سحرها بصره ، أسئلة بايخة جدا • الآعمى يتبين أنهما واقعان فى حب عنيف ، انه يكاد يأكلها بنظراته وهى تكاد تمضغه بأسنانها ، لايقوى أمامها على الجلوس فترة طويلة . فهو يقوم ويذرع الحجرة جيئة وذهابا ويداه وراء ظهره يتأجج بالنشوة والفرح . يطبطب على ظهرها مرة وعلى ظهرى مرة ، اناء حبه امتلأ وفاض ، انه يضحك من قلبه ويملء فمه ، أما هى • • فمن أجله وحده ابتسامتها ، فاذا غاب غابت ، كالظل مع النور ، هى أمامه تحس أنها تجلس فى ضوء مصباح فى بيت آمن والليل عاصف غطيس ، أو أمام مدفئة فى ليلة قر ، انه الرى الذى تنشقه جذورها ويتمشى فى غصونها ويورق عليه زهورها ، لو فتحت قلبها لوجدته فيه . ان رسمه يتلكأ قليلا على مقلتيها اذا ولى شخصه عنها . كنت أتوقع كلما لمسها أمامى أن تنبعث من اللمسة شرارة تئز ، ولم يتركنى فى أول لقاء حتى سألنى بلهجة المنتصر الفخور :

ـ بذمتك أرأيت ياعم كم هى جميلة • • زوجتى المقطقوطة ؟ كانت منيتى طول حياتى أن أتزوج من شقراء •

وعشت فى ظلهما بالرغم منى ، توثقت بيننا صداقة وخلطة ورفع تكليف ، كأنى صعبت عليهما فى وحدتى ، فقررا أن يضعانى تحت جناحهما ، وامتلأ البيت حبورا ، ألفت ليالى طويلة مليئة بالضجة كأنما تدور فوق السقف (ماتش كورة) .. انه يطاردها وتطارده ، يصطدمان بالأثاث ويقعان فوق المقاعد وتتعالى الضحكات ، ألفته فى أمسيات كثيرة يهبط السلم جريا ويعود وفى يده زجاجة ملفوفة ، ثم بعد ثوان يهبط السلم قفزا ويعود وفى يده قرطاس فاكهة ، لم أره يصعد السلم الا خطفا كأنه مقبل لاطفاء حريق ، حبل غسيل مشخلع تتدلى منه قمصان نوم وملابس حريمى داخلية وأثواب تجمع كل ألوان الشفق ، لو أقيم فى بيتنا فرح لما احتاج لغيرها زينة . أصبحت أشم فى السلم وهو خال جميع روائح الغورية من عطور وحناء ، فما بالك اذا كانت وجيهة طالعة أو نازلة ، وهى تنزل تتحسس الدرج بطرف حذائها كأنها تمتحن ماء فى حوض ستغتسل فيه ، نظرتها قبل فمها تسعى على قدميها (ياأرض احفظى ماعليكى) وهى حين تطلع لايجد تعبها عونا له الا فى تقصعها وحركة متتالية من رقبتها كذراع مضخة يدوية ، يومهما يمضى على وتيرة واحدة ، يهبط مصطفى السلم مسرعا فى

الصباح الباكر ويعـود بعد قليل وبين ذراعيـه مطالب البيت ، فليس عندهما خادم ، وبعـد قليل أسـمع باب الشقة يفتح وصوت وجيهة وهى تودعه وتوصيه أن يأخذ باله لنفسه ، وأسمع صوت قبـلات ، ويهبط مصطفى السلم يخبط الدرابزين يكاد يتعثر لأن وجهه ملتفت الى فوق ، وألمح وجهه من شراعة باب شقتى فأجـده مضيئا بسعادة مطمئنة ممتزجة بشىء من الجد ، الغالب ـ لاننى لا أسمع حركة ـ ان وجيهة تعود لفراشها لأنهما لم يناما الا بعد منتصف الليل بكثير ، ألا ينتهى كلامهما وعبثهما؟ كيف يستطيعان وحدهما قضاء الوقت الطويل كله بلا ملل والوجه فى الوجه ؟ وقبيل الظهر أسمع وقع أقدامها ووش وابور الغاز • لاتطبخ وجيهة صنفا جديدا الا أرسلت لى طبقا منه • وبعد الساعة الثانية ، يقبل مصطفى وهو يحمل قرطاس فاكهة أو بطيخة أو شـمامة كأنه يحضن بين ذراعيه طفلا عزيزا ، ثم تنقطع الحركة وقت القيلولة الى قرب الغروب فينزلان معا وقد أكمل كل منهما أناقته وزينته • تضع ذراعها فى ذراعه ، جسمها ملتصق به ، رأسها مائل على كتفه وشعرها الأصفر عى ضهرها زادت نكشته بعد خطوتين •• ثم يعودان فى العاشرة ، وأحيانا

بعد منتصف الليل ·· ويبدآن من جديد ماتش الكورة والضحكات العالية · وحبل الغسيل يلبس ويخلع يوما بعد يوم أشاين فرايحى ·

شهور متتالية وحبهما لم ينقص قيراطا واحدا ، وسؤاله لى لايتغير :

ـ بذمتك ·· ألا ترى كم هى جميلة ·· زوجتى القطقوطة ؟

وذات ليلة ، قبيل الفجر ، استيقظت على دق شديد متعجل على باب شقتى ، فاستعذت بالله وقمت ، انه مصطفى يدخل كالمجنون ويقول :

ـ عندك أدوية كثيرة ، فهل من بينها دواء يوقف القىء ··؟ وجيهة مريضة منذ أن عدنا ، أظنه هو السمك الذى أكلناه ، عليه لعنة الله ، أنا خائف لأن لون قيئها أسود ··!!

قلت له : «لعلها علامات الأمومة» فأجاب من فوره :

ـ المهم أن لا تتألم ·

وفى الصباح ، تأخر فى خروجه ، وعاد مبكرا ، ولم

يكد يصعد حتى نزل من فوره وقال ووجهه أصفر ويداه مرتعشتان ·

ـ جسدها كالثلج ، دبرني ماذا أفعل ؟

استدعينا الطبيب ، ولم يكتمني من وراء ظهر مصطفى أننا تأخرنا في استدعائه وأنها مصابة بتسمم وهبوط شديد في القلب ، أصبح يفوت كل ضربتين ضربة وأسرعت الى التليفون عند البقال ، وحرت · أأنادى بوليس النجدة أم الاسعاف · وعجزت يدى من الدهشة أن تجد الرقم الذى أريده ، وبدا لى أن أكبر مشكلة في الحياة ، هى العثور وقت الهلع على رقم فى دفتر التليفون ··!!

وأخيرا · وصلت عربة الاسعاف ، وصعدت مع القادمين · فلما رأوا وجيهة رفضوا نقلها ، كان واضحا أنها تلفظ أنفاسها الأخيرة ·

ظل مصطفى طول الليل راكعا على الأرض بجانب الفراش ممسكا بيد الجثة يبكي وينهنه بحرقة ، وتنبعث من كهف جوفه صرخات ممزقة ، هو والبكاء لسان واحد لأفعى مشقوق نصفين ، كأنما بفضله نمت فى الدنيا حلقة الجزع فى أبهى صورة ، كل جزع سابق كان مسخا

يتهيأ للكمال. ليس هذا برجل يبكي امرأة ، وانما سمعت الآذان لأول مرة بكاء بكاء الانسان على قدر أخرجه مطرودا من الجنة ، وحرمه رؤية وجه ربه ، لم يترك اليد حتى بعد أن امتلأت الحجرة بنساء كثيرات من الأسرتين يضطربن ويولولن ، ويختفي في الضجة صوت مقرئة كفيفة ، حاولنا عبثا أن نزيحه من مكانه فلم نستطع ، كأن حزنه صب من حديد ، لم أوقن بطيبة قلبه وبراءة طبعه الا وهو منهدم ، لم يسنده حساب أو ذرة من الأنانية. لم تهمس غريزته ككل الأحياء أمام الميت ولو كان أعز الاعزاء : «يافرحتي لم يكن الدور على».

وفي الصباح ، ونحن نسير في الجنازة وراء نعش عروس تتبختر ، مزين بالطرحة والفل ، كنت أرى لأول مرة أبشع صورة لحطام رجل ، لاشك أن يديه عملتا في غفلة منه فلا أدرى كيف واتاه عقله ، ومن قعر أى صندوق استخرج هذه البذلة السوداء القديمة الضيقة القصيرة ، التصق قماش بنطلونها بساقيه ، بدا فيها كأن حدأة الفقر خطفته فجأة بمخلبيها ، وبقى وسط الزحام مدلدلا كالمشنوق ، شعرات راسه هشيم على الصدغين ، تكشفت له صلعة صفراء لاتخلو من نقر وأخاديد ، هبطت نظارته مع الدموع الى منتصف أنفه ، زهرة العين من

فوقها مضعضعة متهرئة كأنما سحقتها على الأرض أحذية غلاظ ، هى من دم يطفـو فوقها بؤبؤ غـريق ، يمسك بذراعيه على الجنبين رجل من أقاربه وأنا ، ويمشى بيننا مشية المسـاق الى حجرة الاعـدام ، انخلع قلبى اليه ·
وودت لو أننى أم وهو طفلى فآخذه فى حضنى ومأآزال أناغيه حتى يهدأ وينام ، أحسست به كفرخ عصفور وقع من عشه ، ملبد الزغب بالتراب ، منقاره العطش مفتوح ككف يبسطها متضرع ، وهالنا ساعة الدفن آنه نزل الى القبر وأبى الخروج وهو يصرخ بصوت مبحوح «دعونى معها ! أريد أن أموت وأدفن بجانبها ، لاأريد أن أعيش أعيش لمن بعدها ؟!»

واستطعنا بعد لأى ونحن ننزل درجة الى الظلام ان تصل أيدينـا الممتدة الى ذراعـه ونشـده بقـوة حتى أخرجناه ·

أبى مصطفى أن يترك الدار ويذهب الى أسرته - قال انه يريد أن لايحـرم من رائحـة وجيهة ، كلما فتح دولابا ورأى ثيابها ، وألقى مراسيه أغلب الوقت عندى، مر اليوم الأول لاينقطع فيه عن التدخين ، لايذوق الأكل، يقطع الحجـرة ذهابا وايابا ، ويده وراء ظهره ، هـذه الاعياء بعد منتصف الليل فارتمى ونام ببذلته ثم هب

قبل الفجر وهو هائج كالمجنــون ، ومن جـديد بدأت جولته فى القفص ، نوبات البكاء متقاربة ، يضع كفه على وجهه وينهنه ، أصبح صوته فحيحا ، وفى اليوم التالى قدمت له طعــاما وألححت عليه الحاحا شـديدا أن يجلس ويأكل ، فعاف الأطباق كلها وأخذ قطعة من الجبن الأبيض وحاول بصعوبة مضغها وبلعها ، وقطع اللقمة الثانية . وقبل أن يعدها رماها وقام ، أعطيته فنجان قهوة ، فلم تحسن يده حمله لارتعاشــها ، وشربهــا كطفل يتعــلم الشرب ، بلل حوافى فمه واندلق بعضــها على الطبق . هكذا فعل ايضا فى اليوم الثانى ، ولكنى رايته فىاليوم الثالث حين أفرغ الفنجان ، أمال الطبق على فمه ومص طلاءه ، محال أن يكون مصطفى ــ الذى طالما ملأ بيتى بمرحه وضحكاته ــ هو هذا الرجل الذى أصبح مجــرد ثقل فى الحياة ، كوتر العــود حين يرخى تمــوت عليه اللمسة فلا يرن ولا يطن ، قميصه متسخ ، رباط حذائه مفــكوك ، لحيتــه بنت حسك قمىء يــوحى بالجفــاف والقمامة ، تفوح من جسده رائحة العرق ، يده الناعمة أصبحت كورقة ســنفرة ، وكلامه من كثرة التــكرار كالطوب ، وحركاته تعثر أعمى أو سكران ، وخيل الى أن عينيه تبرقان أحيانا رغم الحزن بوميض خنجر متستر

في يـد قاتل ، ونطقت لى من تحت القنـاع قـوة كلها جبروت وعزم وعنفوان ، تنظر الى شزرا بعداء لانى لست مثله كسيحا مكبلا بالحزن . ماهى هذه القوة ..؟!!

وبدأ مصطفى يطلب قليـلا من الطعام ، ويطلب القهوة بنفسه ، وينـام ما بعد الفجـر ، لكنه مصر على البقاء فى الدار لايخرج قط ، وعلى أن لايحلق لحيته وأن لاينقطع عن التدخين وعن ذرع الحجرة ذهابا وايابا، وعن البكاء بصـوت مرتفع كلمـا جاء اسم وجيهة على لسانه .

وانتهت أيام أجازته فخرج لعمله ببذلته السوداء القديمة الضيقة القصيرة ، ولكن نظارته عادت الى مكانها ورباط حـذائه مشـدود وقميصه نظيف ، وذهب أولا للحلاق وأسلم له لحيته ، أصبح اذا عاد لايخرج ، يوزع وقته بين شقته وشقتى ، لايطيق أن يأكل وحده ، وأصر على أن يأتى لى هو نفسه كل يوم بفاكهة اليوم ، وعادت القراطيس الى حضنه ، ولكنه ما آكل من فاكهة جديدة الا دمعت عينه ، يمسـحها بمنديل لوجيهة يحتفظ به فى جيبه . وفجأة طرطقت أذناى ذات يوم وأنا أسمعه يضحك ملء فمه حين سمع جارة لنا سليطة اللسان تنهال من الشباك على غريمة لها بسباب من الصنف الحيانى . وقام

مصــطفى وفتح الراديو اذ كان قد حــان موعد نشرة الأخبار ٠

وأخبرني بعد أيام أنه ذاهب مع زملائه لمقــابلة الوزير ، فرأيته في الصباح يخــرج بأحسن بذلة عنده وبأشيك رباط رقبة ٠ وقبل أن ينصرف قال لى :

ـ ماقولك في اكلة ملوخية اليــوم ؟! ان نفسى تشتاق اليها ٠ وتسهر الليلة لسماع أم كلثوم ، انهــا ستغنى أغنية جديدة ٠٠!

وحين حاولت بعد خروجه أن ألبس ثيــابى ٠ لم أشعر أن يــدى اليسرى تنقح على عنــدما أحــركها ، وأحسست أنها تناديني بصوت خافت لتهمس الى بخبر ، فلما خلعت الضماد وجدت ماء الحياة والصحة يترقرق في صفحتها ، مجلوة ٠٠ مبرأة من السقم ، فهمت أن خبرها هو عدولها عن الاضراب العنيد الذى رتعت فيه. ووجدت فيه أكبر دلع من فرط عنايتي بها . كنت قد نسيت همها أياما طويلة لأنى أغرقته في هم صــديقى مصطفى ٠ أيكون في النسيان وحده سر شفائها ؟!

ومرت أيام تنســاب كالرمل في يــد الريح حتى ينتقل الكثيب كله من مكان الى مكان ، لا أحــد يدرى

متى وكيف ، فاذا بمصطفى يخبرنى ذات يوم أنه ذاهب للاقامة مع أسرته لأن حياة الاعزب الوحيد فوضى ، وأن أكثر ملابسه قد ضاع بين الغسالة والكواء ·

وغاب عنى مصطفى والدنيا تلاهى ، ومضت مدة أظنها لاتزيد عن سنة على وفاة وجيهة ، فاذا بمصطفى يدق بابى ذات يوم ويدخل يسحب وراءه فتاة تتقدم على استحياء ، سمراء قصيرة نحيلة ، شعرها أسود فاحم، تكوم قليلة فوق رأسها ، واشار قائلا وهو يضحك :

ـ حضرتها تبقى عروستى ·· وحضرتى ·· أبقى عريسها · تسمح تسلم على عواطف !

وعلمت منه فيما بعد انها أرملة مثله ، وانها فقيرة باعت كل أثاثها قطعة قطعة · وحين عرفها فى محيط أسرته كانت قد أصبحت على الحديدة ، فاذا بقلبه يحنو عليها حنو غصن ندى · ألم أقل لك ان مصطفى رجل طيب ؟ أحس كأنه عثر على طفل ضائع فى مسالك المدينة ، تكاد تدهسه زحمتها ، ولم يلبث الحنو حين فاض به قلبه أن التقت يده بيد بنظرة من عيون عسلية وديعة ·· مستسلمة · لاتعرف الشر ، إن تكن كنوزها قد نفدت ، فانها كأمنا الأرض تحيا بعد موات ، اذا

جاءها الغيث وتعود تهز أعطافها وهى أبهى رواء ، ومن لمسة اليدين انبثق مارد ليس بغريب على مصطفى ٠٠ اسمه الحب ٠

وجاءنى مصطفى وحده بعد ذلك ، وتحول حديثه سريعا الى الأزمة العامة وأزمته هو ، وشعرت أنه يمهد له عـذرا ويحـاول أن يبرىء نفسه من تهمة تنخر فى قلبه اذ قال بعد ذلك :

ـ الله يلعن أبو أزمة المساكن ، كان نفسى ألاقى شقة تانية أعزل فيها وتكون دخلتنا هناك ٠

سكت والتزمت الصمت ولم أرد ، فأردف :

ـ عواطف ماعندهاش مانع تيجىفى الشقة القديمة وعلى العفش بتـاعى بس عـاوزة ولو سرير جـديد لكن ٠٠

فقاطعته لأحمل عنه الوزر وقلت له :

ـ لو كنت محلك وظروفى مثل ظـروفك لسمعت كلامها ، الظاهر انها بنت عاقلة وقنوعة ٠

ويمر الفصل الأخير كالفصل الأول ، ليس بينهما ستار ينزل ويرتفع ، ماتش الكورة يعود من جديد فوق

السقف ، الضحكات تتعالى ، مصطفى ينزل فى الصباح ليأتى بمطالب البيت ويعود حاملا قراطيس الفاكهة ، حبل غسيلهم يزهر من جديد ، وها هو ذا مصطفى مع عواطف فى شقتى ، هى جالسة (كحمامة متستتة فوق سور خرابة أمام ذكر له صبوة يتحنجل) ابتسامتها الصامتة موزعة بين عينيها وشفتيها ، أما هو فيذرع الحجرة ذهابا وايابا ويقهقه بملءفمه ، ويقول لى وعيناه مرحتان ، قد غاب عن نظرتهما وميض الحنق الذى أخافنى ذات يوم :

ـ بذمتك .. ألا ترى كم هى جميلة .. زوجتى القطقوطة ؟ كانت منيتى طول حياتى أن أتزوج من سمراء ..!

أود أن لايكون قد لحظ أننى طأطأت رأسى ، لم أستطع أن أمنع نفسى من تذكر وجيهة ، وخيل الى ان روحها معنا وذكرت باستهزاء يوم تمنيت أن أكون أما تلقم الثدى وليدها الحزين فما نفعه درها ، ومضى كصغار القطط يهتدى وحده الى ثدى أمه الحياة التى لا أم غيرها للسلوك والنسيان ، فلما ذكرت هذا رفعت رأسى وأقسمت فى سرى أن لا أحزن على شىء قط . مادام كل حزن مآله فى هذه الدنيا الى النسيان ، ومع

ذلك أحسست لقسمي بشعور غامض غريب ، خليط من البجاحة والامتعاض ، ومن الخـوف والاحتقار ، حين أدركت أنه قسم رجـل له عقـل وليس له قلب ، رجل أناني دنيء ·

امرأة مسكينة

تقلبت الأم على الجنبين أغلب الليل ، وقامت قبيل الفجر ـ كما تفعل يوم سفرها بقطار الظهر • ومشت محموقة الى الحمام لتتوضأ ، لاتبالى على غير عادتها بوقع قبقابها على البلاط ، يود قلبها أن تستيقظ فتحية زوجة بنها قبل موعدها ، يغيظها منها أنها نؤوم الضحى ، بل تود أن يستيقظ كل من في البيت ، لتجتمع الأسرة كلها من أول النهار ، وتعد البزازات لحفيدها ميمى ، وتأتيها شقيقته آمـــال فتأخـذها فى حضنها وهى على سـجادة الصلاة ، وتمد يدها من تحت الطرحة البيضاء وتربت على رأسها وتدعو لها وترقيها وهى تتفل حولها • انها أصبحت على غير مألوف طبعها لاتطيق الوحدة ، وأمامهم يوم مزدحم وزيارة للمستشفي وأكثر من مشوار ، وحين تمتمت والماء ينصب على كفيها : «أشهد أن لا اله الا الله» كان وجهها لايزال ينطق بالتضعضع ، يختلط الاعياء فوقه بتجهم العجـوز ، ولكنها حين أضـافت :

«وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله» طفرت الدموع السخان فجأة من عينيها وأصبح لها وجه طفل مسحته وبللته أواخر نوبة من البكاء ٠ ان سيرة الرسول شفيع أمته يوم القيامة تذكرها دائما بالموت ، وتمس قلبها بحزن حنون ، حتى وهى فى عرس ، فكيف بها اليوم وهي ضائعة مغمومة ؟ ورفعت كفيها وجبهتها الى السقف ، كأن نظرتها لاتراه وتنفذ منه الى السماء ، وأنت بصوت متهدج ، بسؤال هو فى حقيقة الأمر دعاء وابتهال :

ــ ياترى ياابنى يافؤاد كيف حالك اليوم وكيف أصبحت ؟

بعد ساعة كانوا قد فرغوا من الفطور بسرعة وبغير نفس ، بلع لا أكل ، ووقفت فتحية امام المراة ترتدى ملابسها وتستعد للخروج ، انها أقصر قامة وأكثر بدانة من صورتها لدى الغرباء ، أحذيتها كلها ذات كعب عال ، والمشد الذى تلبسه بجهد يضغط جسمها الفاشل بعد ولادتين وسقط ثلاث مرات ، الى خصر ضامر فوق عجيزتها ، العينان اللوزيتان من أثر الكحل تراهما فى المرآة فى صباحها دائرتين ضيقتين ، واحمر جفناهما من السهر ومسح المنديل ، وان بقى

الانسان الأسود هو هو فى يقظته وصموده وتحفزه وعميق فهمه ، هذا الماء المنعقد له اشعاع جوهر كريم لايتحطم ، واجهتها مشكلة قديمة فى صورة جديدة لم تصادفها من قبل ، ليس الخيار هذه المرة بين ذوق وذوق ، أو لون ولون . بل بين وقع ووقع ، أى ثوب ترتدى ؟ انها زوجة وقعت فى نكبة ، وزوجها فؤاد مريض لا هو ميت ولا هو حى ، هى ذاهبة لاستجداء عطف رئيسه ، وسيحيط بها كثير من زملائه ، فهل الأنسب لها أن تخرج كعادتها فى أتم زينة فيكون من وسائلها اغراء الأنثى وهو سلاح لايخيب ، وتبرهن فوق ذلك أنها امرأة من معدن أصيل لايصدأ بسهولة ، ستلحظ العين شجاعتها كما تلحظ فتنتها ، أم تخرج بلا زينة ، مهملة الثياب والشعر . فينطق حالها بالوفاء وانشغال البال والتعاسة ، فتكون أقدر على استدرار العطف ، هى تعلم أن أفئدتهم لن تنشرح الا اذا رأوها تذرف الدمع أو على الأقل تشيح بوجهها وتمسح عينيها بالمنديل ، لهذه الفكرة صعبت عليها نفسها ولعنت قسمتها السوداء ونطقت بانفجار المحنق .

ــ ياترى ياربى ماذا سيحدث لنا غدا ؟!

وأخيرا اهتدت الى الحكمة ، خير الأمور الوسط ،

لبست المشد وثوبا جميلا فوقه معطف قديم ، تركت شعرها وكحلت عينيها ، فكحل لبان الدكر نوع من الدواء ، واختارت حقيبة يد صفراء ، عميقة ، لها حمالة تعلق بها على الكتف ، تشبه حقيبة كمسارية المترو ، توحى أنها قد تضع فيها وهى راجعة بعض لوازم البيت ، ونبهت على ذاكرتها أن تشترى فى طريقها عرضحال تمغة ، فمن يدرى ؟

دخلت على حماتها لتسلم عليها فوجدت آمال مكورة لصيقة بجدتها ، فنرزتها بطعن من أصبعها تحت الابط وهى تقول :

ـ هيا هيا الى المدرسة ، أنا لا أحب الدلع ، ماذا حدث حتى تبقى بالدار ؟ بابا بخير وغدا يعود الينا بالسلامة ، من يراك يظن أننا فى مأتم ، أنا أكره التفويل .

وجهت اليها آمال نظرةاسترحام وعتاب ، وأحست أن جدتها تود أن تدافع عنها ، وحمدت لها أنها لم تتكلم ، حديث القلوب يغنى عن الافصاح ، لم تبال فتحية بنظرة ابنتها ، ولعلها لم تقو على مواجهتها فالتفتت الى حماتها وقالت بصوت مسكين قد هبطت حدته :

ــ أنا خارجة يانينا ، ادعي لى ، وأرجو أن أعود بسرعة ، لنذهب ونلحق الجماعة ساعة الزيارة قبل الظهر ٠

وقبل أن تخرج ، أرادت أن تطمئن على ميمى ، وجدته راقدا على ظهره في مهده ، يرفس بيديه ويلكم بقدميه ، ويضحك للملائكة ويناغيها ، لايعرف بعد معنى اليوم ومعنى الغد ٠ مالت عليه ، كادت تقطع وجهه تقبيلا ، وأن أحنقها منه هذه الابتسامة فى غير أوانها ، هى خلل فى الطبيعة ، تكاد تنطق بالسخرية من هياجهم وتخبطهم ، انه يتعالى عليهم بأنه الذكى الوحيد بينهم ، وان الحل قد خفى عنهم دونه وهو واضح كل الوضوح ، وهتفت له بذراعها وهى منصرفة :

ــ طور الله فى برسيمه !

***

لما خرجت انضم نسيم الصباح الرطب الى عزمها فى دفعها الى المسير بخطى سريعة قصيرة ، رأسها محنى على صدرها ، ذهنها مكوك أكثر من قدميها سرعة ، تارة يجرى الى الأمام وتارة الى الوراء ، انها تحس

بتعب شديد لأنها لم تنعم بنوم هادىء منذ ليال عديدة، هى لم تألف الرقاد وحدها فى فراش شاغر ، الوحدة فيه تؤرقها ، حتى فى الليالى التى تعقب الخصام فى النهار فيقاطعها فؤاد ، ويحزن ويلتزم الصمت وتعرض هى عنه • كان يكفى أن يرقد بجانبها ولو أدار لها ظهره حتى تستمد من سماع صوت تنفسه والاحساس بدفء جسمه أنيسا يعيد النوم لعينيها ، سرها وهى تناجي نفسها وهى ماشية أن تذكر أنها كانت هى المبادرة دائما بالصلح ، وتنسى كل ماحدث • هى سعيدة لأن الله سبحانه خلقها بأعصاب قوية • هيهات أن تطبق عليها الهموم ، حتى لو جاءتها لاتتركها تنفذ الى قرارة نفسها فيكون البلاء مزدوجا : هموم ونفس مريضة ، بل تبقيها في ميدانها الخارجي تصارعها فيه وتبقى نفسها ناجية ، تنزلق عليها هذه الهموم كالماء فوق الرخام ، انها تعلم أن أصحابها وأهلها يصفونها بالشجاعة والثبات ، أما تطوعهم بوصفهم لها فى غيبتها أنها مع ذلك أنانية قاسية فاتهام باطل ، ماهى فى الحقيقة الا امرأة عملية ، عقلها فى رأسها ، أما فؤاد وان سارع هو أيضا للصلح ، وارتاح له ، وحمد لها اعادة الكلام ولو نفاقا لبرهة وعاد الى نغمته قبل الخصام

ليستطيع أن يأكل ويشرب وينام ويدخل ويخرج ويقلع ويلبس ، الا أنه كما تحس منه تبقى ذكرى الخصام محقونة في نفسه ، يكتمها ولا ينساها ، ينفجر أحيانا ويقول لها انه لايستطيع أن يهضم أو يغفر الأسية تنزل به بلا جريرة منه ومن الباب للطاق ، ومتى ؟ في عين الوقت الذى يتوقع منها الاكرام والشكر ، أو في عز الوقت الذى تكون فيه أعصابه متوترة محتاجة أشد الاحتياج لكلمة طيبة ولو كاذبة تنزل على قلبه بردا وسلاما ، الله يخرب بيتها .. هكذا وهكذا ... هياج صبيانى وحماقة فارغة وغرق في شبر ماء ، لماذا لايقتدى بها ؟ الخصام الجديد عندها حادثة طارئة ، تأخذ قسمتها وتتمشى ، أما عنده فارث عتيد وذيل سلسلة طويلة تغل العنق ، لأن الصلح فى كل مرة يتم في حكمة بتغليب رأيها على رأيه ، وانهزامه أمامها طلبا للسلامة ، وما عيب ذلك ؟ وهل لفؤاد رأى يوصل لبر ؟ مامعنى التمسك برأى خاطىء ؟ لمجرد الاستبداد؟ انه رجل لم يتقدم به العمر منذ طفولته ، لم تحسب يوم لقيته في منزل احدى قريباتها أنه سيجرى وراءها ويسيل لعابه ويلح عليها أن تتزوج منه لأنه ميت فى دباديب رجليها ، كانت فتحية تتمنى أن لاينىدلق عليها

كل هذا الاندلاق ويضع عقله فى رأسه ويتم دراسة الحقوق وينال الشهادة ، فهمت بعد ذلك أنه يهرب اليها ويلوذ بها من أحضان تخنقه بها أسرة يأكل بعضها بعضا ، أسرة كبيرة عتيقة متشابكة لاتعرف فيها أبناء الأعمام من أبناء الخالات من كثرة زواج بعضهم لبعض جيلا بعد جيل ، والنزاع كله على ثلاثة بيوت مخلخلة فى حى الخليفة وعشرين فدانا من أرض أتلفها الاهمال لايعرف أحد منهم حدودها ، انها لاتندم الى اليوم أن انعطف له قلبها : أدب جم أصيل ، وجسم رياضى لدن، وحياء لذيذ يغمر الوجه عند الكسوف بلون الورد ، وعين منكسرة عسلية صافية مبرأة من الخيانة ، والبجاحة ، مأمونة العاقبة ، وهو فوق ذلك ابن فن ، حين يكون رائق البال يعزف على البيانو أغانى ضحلت من شدة ابتذالها فينطلقها من جديد بشجن عميق لايخلو من تقصع وشخلعة وكانت هى حين قابلته يتيمة الأبوين تعيش فى كنف جدتها ، ليس لها من سند أو معين الا معاش زهيد عن أبيها ، أحست أن القدر يختارها لمعركة ، وأنها هى وحدها القادرة على الانتصار فيها . انها لاترى بأسا من أن تعيش معه فى مبدأ الأمر على ايراده الضئيل الى أن يأخذ الله بيده ،

فقبلته ، ولم تنزعج حين رأت هذا الفتى الفاره يبكي
بين يديها ليلة الدخلة وينهنه كطفل ، وفوجئت بأن هذا
الطفل المدين لها بانقاذه يحاول فى أيام الزواج الأولى
أن يفرض عليها ارادته ، عجيبة ! لم يـدم الصراع
طويلا وانتهى بأن أسـلم فؤاد اليهـا نفسه وطاعته
وجيبه ، فهل طغت ؟ كلا ! بل وقفت بجانبه ، أدركت
أنه لن يقوى على مشـقة المذاكرة فأخـرجته من كلية
الحقوق وأدخلته مدرسة اللاسـلكى للطـيران المدنى ،
وأصبح فى غمضة عين فى مركز مرموق وصاحب مرتب
محترم ، وحـل الرخـاء وانقضت أيام الشـدة ، الله
لايرجعها ولا يرجع اليوم الذى اضـطرت فيه أن تبيع
البيانو ، قامت بواجبها ، هى التى رتبت له بيتا ينعم
بالعفاف والنظافة وضبط الميزانية ، وهى التى عمرت
بيوت حى الخليفة ونجحت فى فرز نصيب زوجها بحكم
قضائى ، وأصلحت الأرض فأصبحت جنة وسط خراب
اذا كان الهيام قد بلغ حده مع الزمن ثم انقلب الى ألفة،
ورابطة الزواج الى عشرة انسان لانسان لا أنثى بذكر
والهواية الى وظيفة ، فهذا أمر طبيعي ، وهذا هو شأن
الناس جميعا ، هذه هى سنة الحياة . ان مجىء الأولاد
يعيد ترتيب القيم والهموم على نحو آخـر ، جيل ينبغى

أن ينسى نفسه ودلعه من أجل جيل جـديد صاعد ، ان كانت قد نزعته من اسرة أمه وأبيه حتى قبل القضـية فلأن أقرباءه جميعا متعبون جـدا ، ليس وراءهم الا النكد وخوتة الدماغ ، يكفيه لكى لايشعر بالوحدة أنه أصبح لايخـرج الا رجلها على رجله ، لاتسـتطيع عين غريبة أن تلحظ أقل خلل فى البيت ، اذا تسربت أنباء الخصام فمن تفليت لسان فؤاد لا لسانها هى ، انها لاتحب الثرثرة والشكوى ولا تأمن أحـدا قط على سرها ، كل انسان طبيعى غير خيالى لو كان مكان فؤاد لعـد نفسه سعيدا ، كانت كلمة الحق تخرج أحيـانا من فمها مؤلمة وان كانت صادقة ملفوفة بالضحك ، فتقول له وهى به ودود حدوب : بذمتك ، لو انك تزوجت غـيرى ، فتاة لعوبا من الصنف اياه ،أما كانت لعبت بذيلها ، وشلفطت حيـاتك وجابتك الأرض ، وسممت عيشك بالشـكوك والريب ؟

لو كانت مرآة الصـباح لاتزال أمامهـا فى تلك اللحظة وهى ماشـية لرأت فتحية على شفتيها ابتسـامة مريرة ، فؤاد مغفل ! لكنها هى بسلامتها شيخة المغفلين . لقد ظنت فى العهد الأخير أن السـاقية تحت التعريشة ستظل تدور ، انقلب صرير عصلجة التروس مع الأيام

الى نغم سلس مخدر ، واصبح الجلد منحسا لايؤلمه سوط الحافر غليظا لايجرحه مسمار أو فص حجر . وقدور الماء تصب بانتظام فى أرض لا هى غارقة ولا هى مشحطة ، اليوم كالامس ، والغد كاليوم ٠ مغفل فؤاد ! هذه هى الطمأنينة ، سر السعادة ، ينبغى أن يقبل لها اليد ظهر البطن ، ولكنه خلا بها ، خانها وانهار من وراء ظهرها بغير سابق انذار ، هل نسى أن لهما بنتا وطفلا رضيعا ؟

★★★

لم تكد فتحية تدخل فرع شركة الطيران فى المدينة حتى أحاط بها رجال تعرف أكثرهم ، سلموا عليها جميعا باعزاز وعطف شديد ، هم فى سباق بينهم ، من منهم يقدم لها المقعد ومن منهم يطلب لها القهوة ، بلعت ريقها حبة ، وحين تكلموا لم يدر الحديث كما فى البيت عن اليوم أو الغد ، بل عن الأمس ، وقفزت كلمة «كان» بجلالة قدرها الى أوائل الجمل ، وتلاحقت على أذنها عبارات كثيرة لايمنع تشابهها من تكرارها :

ـ كان فؤاد والله رجلا طيبا لايستحق ماجرى له !

ـ كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاح ، فماذا

جرى له ؟ كنا جميعا لانتصور أن نسمع مثل هذا الخبر ، شدة وتفوت ٠

ـ كان يرهق نفسه بالعمل وكنا ننصحه دائما أن يرفق بأعصابه ٠

ـ كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاح ، فماذا جرى له ؟

أحست فتحية أنها ليست زوجة بل أرملة تتلقى العزاء فرفعت رأسها وقالت برفق لايخلو من حزم :

ـ ممكن أقابل البيك الرئيس الآن أم هو مشغول ؟

أجابها أقرب الرجال اليها :

ـ حتى لو كان غارقا فى أذنيه فانه سيفضى نفسه فى استقبالك ٠

أوصلوها لبـاب المكتب ، وأسمعوها وراء ظهرها همس بعضهم لبعض :

ـ امرأة مسكينة ٠٠ كان الله فى عونها ٠

جلست فتحية أمـام الرئيس والحمـالة معلقة فى كتفها لم تنزعها وان جذبت الحقيبة ووضعتها فى حجرها، سيكون المنديل بذلك أقرب متناولا ، ففكت أزرار معطفها

فانكشف ثوبها ، انها جاءت لغرضين : الأول : أن يسمح الرئيس بأن تكون الاجازة المرضية مهما طالت بمرتب كامل ، قد يكون الحل أن يتكرم ويغمض عينيه قليلا ، ويقرر أن المرض حدث أثناء العمل وبسبب العمل . والغرض الثانى : أن يعمل على نقل زوجها الى مستشفى خاص ، من مخزن المتاع المهشم الى دار علاج تتكفل الشركة بنفقاتها .

★★★

سارع الرئيس ووعدها بأن يصرف لها مرتبا كاملا مدى ثلاثة أشهر ، ثم بعدها ربنا كريم ، ولماذا نستعجل البلاء قبل وقوعه ؟ أما النقل لمستشفى خاص فمتوقف على تقرير طبى من ادارة المستشفى الحكومى تقرر فيه أن المريض له مصلحة ولا ضرر عليه من نقله منها . أدركت أن نقبها جاء على شونه .

لما رآها تقوم على وجهها علامات الضيق قال لها :

ـ اجلسى ، دعينى أفكر قليلا .

أحنى رأسه وأخذ يخبط على المكتب بطرف قلمه ، ثم نظر اليها من تحت لتحت وقال :

ـ هل لديك شهادة مدرسية ؟

أدهشها هذا السؤال فلم تملك الا أن أجابت :

ـ لماذا تسأل ؟

ثم أسرعت تتم كلامها بلهفة :

ـ نعم ، لدى شهادة ٠

ـ ماهى ؟

ـ شهادة معهد التدبير المنزلى ٠

أحست أنه أصيب بخيبة أمل وعاد بقلم يدق على المكتب ، ثم قال :

ـ شوفى ياستى ، اننى خاضع لتعليمات ، انما أنا قولى مثل والدك أو مثل أخيك الأكبر ، يهمنى أمرك ، فؤاد كان عزيزا على ، اننى أحب أن تحتاط للمستقبل، وأرى أنك قد تصبحين فى موقف لابد لك فيه من الاعتماد على نفسك وحدك ، لذلك فكرت اذا كانت لديك شهادة أن أبحث لك عن وظيفة فى الشركة ، وربنا يساعد ، لكن حكاية التدبير المنزلى هذه صعبة حبتين . نحن فى حاجة مثلا الى سكرتيرة تعرف الآلة الكاتبة ، عاملة تليفون لاتليق بك ٠

أجابته بحسرة :

ـ حين يميل البخت يميل مرة واحـدة ، على كل حال أنا شاكرة ٠

وهمت تقوم ولكنه أجلسها من جديد وقال :

ـ سأقترح تعيينك مشرفة على المواد الغذائية التى تشتريها الشركة لاعـداد وجبـات الأكل فى طائراتها لزبائنها ، فما قولك ؟ هذه الوظيفة سنخلقها لك خلقا ، اكراما لك ، لأنها ليست فى ميزانية الشركة ، تبقين بعقد مؤقت يتجدد .مادام زوجك فى المستشفى ، فاذا خرج وبحثنا له عن عمل أقل مشقة تكون حاجتك أنت للوظيفة قد انقطعت ، ونبقى فى الداخل حبايب وفى الخارج حبايب ، فهـل تقبلين ؟ وهـل تسمح ظروفك بالعمل ؟

فاجأها العرض ودار ذهنها دورة سريعة جمعت كل دوافع الرفض أو القبول وهمت تقول له : «دعنى أفكر يومين» ولكنها انتهت الى أن التردد حماقة كبرى ، ليست هى التى تتهيب الدخول من باب ينفتح أمامها على غير انتظار ، وان كان من ورائه المجهول فأجابته :

ـ لم يكن فى حسـبانى قط أن يحـوجنى الزمان للعمـل ، أنا بفضـل فـؤاد ست بيت ، وقتى كله له

ولأولادى ، انــه كان يحملنى على كفــه ويقضى لى كل رغباتى ، ولكنى أدركت الآن من كلامك أنه ينبغى لى أن أفيق لنفسى وأحتاط للمستقبل ، فأنا أشكرك من كل قلبى وليكن من نصيبك دعاء آمه الصــالحة ودعــائى ، سأقبل الوظيفة ، وسأبذل كل جهدى للفوز برضائك ، بحيث أبيض وجهك ، ولاتندم على تعيينى •

قال لها : اننى سأقترح وأجرى وراء الاقتراح ، أما القرار فيصدره المدير العــام للشركة ، أظن أننى أستطيع اقناعه ، ولكن زيادة الخير خيران • فهل تعرفين له واسطة ؟ ولكن لماذا ؟ اذهبى اليه بنفسك ، فحين يراك ويسمع قصتك من فمك لن يأبى قبول تعيينك بهذا العقد المؤقت ، انه رجل كريم وابن حلال ، والأنسب أيضا أن تقدمى له شهادة بأن فؤاد سيبقى تحت العلاج ستة أشهر على الأقل •

خرجت ، وحين جاوزت الباب فكرت لأول مرة فى حماتها فأطبقت فكيها وهمست لنفسها :

ـ سأعرف كيف انتصر عليها • على كل حال هى زائرة مؤقتة ، هذه الكركوبة الحمقاء أم اللسان البارع فى التنبيط الكتيمى والتلقيح من بعيد لبعيد • مسيرها أن تتركنا فى حالنا وتغور وتذهب للاقامة مع ابنتها •

★ ★ ★

بقيت آمال في البيت ، قالوا لها انها اذا صحبتهم فلن يبقى أحد يأخذ باله من ميمى ، ها قد جاء دورها وأصبح لهم اعتماد عليها فهى لم تعد صغيرة ، لايعلمون أن وقع الكذب والاحتيال على قلبها أشد مرارة واثارة للسخط من الحقيقة البشعة ، انهم لايريدون لها أن ترى أباها فى المستشفى ، هى تعلم أنهم يخشــون أن تبكى وتحدث ضجة ولخمة ، وهم ينتزعون يــدها من يده ، وهيهات أن يصدقوها اذا أقسمت لهم بأنها ستظل صامتة عاقلة مؤدبة ، هى لاتريد الا أن ترى أباها ، لن تكلمه، اللهم الا اذا بدأ هو أولا فتعرف نــوع كلامه وتتدبر جوابها ٠ انها واثقة أنه لن يهيج من كلامها كما هاج فى البيت آخر يوم ٠

وعلى باب المستشفى وحسب الموعد تقابلت فتحية وحماتها مع بقية الأسرة ، أخ شقيق لفؤاد وأخوان لأب وأخت لأم ، ثم عدد غير قليل من زملائه فى الشركة ، فى أيديهم جميعا لفــائف الهــدايا ، بعضــهم بادى الشجاعة ،وبعضهم يكتم الخوف ويتمنىأن تنتهى الزيارة بسلام ، وبعضهم يصبر نفسه بأن هذه الزيارة الأولى تمرين محمود وان كان ثقيــلا عليهم فى المســتقبل ٠

ودهشت فتحية حين وجدت بين الجميع عبد الرحيم ابن خالة ابن عمها ، انها لم تره منذ زمن طويل ، فكيف سمع وما الذى أتى به ؟! استأذنت فتحية بعد الزيارة من الجميع وقالت ان لديها مسألة تريد أن تتحدث فيها مع مدير المستشفى ، فهموا أن همها يفوق همهم وأن العبء كله واقع عليها وأن الناس أسرار • دخلت على المدير بعد أن مكثت وقتا طويلا فى حجرة الانتظار ، فركبتها النرفزة ولكنها تمالكت أعصابها وقالت له بهدوء يناسب المقام :

ـ هذا هو أول معروف ألتمسه منك ، أريد أن تتكرم وتعطينى شهادة بأن أمام زوجى علاجا لايقل عن ستة أشهر •

أجابها وهو يقلب بعض الأوراق أن العادة لم تجر بذلك ، وأنه من المتعذر الحكم على مدة العلاج •

أسرعت تقول :

ـ وما الضرر ؟ وماذا تخسر ؟ شهادة لا طلعت ولا نزلت ، أنت لست مرتبطا بها ، اذا شفى فؤاد قبل الموعد فلن نجبرك أن تبقيه عندك ، انما هذه الشهادة تلزمنى أشد اللزوم وتتوقف عليها أشياء كثيرة •

رفع اليها بصره وتأملها ، تحولت نظراتها الثابتة الى غيام ، فأحنى رأسه وقال لها :

ـ حاضر ياستى ، لا أحب اغضابك ٠

لما خرجت من عنده لامت نفسها على حدتها واعتزمت على أن لاتكرر هذه الهفوة ٠ هذه الحدة التى جعلتها تنسى أن تطلب الشهادة التى تنصح بنقل فؤاد لمستشفى خاص ، ستطلبها منه فى الزيارة القادمة ٠

ودهشت فتحية مرة أخرى بسبب عبد الرحيم حين وجدته ينتظرها على باب المستشفى ، وسار بجانبها ، وكان هو البادىء بالكلام :

ـ لم أرك منذ دهور يافتحية ٠

ـ أنت لاتسأل عنا ٠

ـ بل أنت التى تكبرت علينا لأننا فقراء ٠

ـ هذه أوهام من عقلك الوسخ ، ربنا يحمينا من شر أقوال الناس أمثالك ٠

ـ على العموم أنت فى حاجة لمن يساعدك الآن ، أنا تحت أمرك وفى أى ساعة تطلبينى تجدينى ٠

قالت فى سرها : ماأكثر الوعود هذه الأيام وما أقل الوفاء !

ـ أما تزال فى وزارة الأوقاف ؟

ـ كما أنا .

دب فى قلبها احتقار له ، انه لم يتغير ، هو دائما له عقلية الخادم ونفسيته ، يحب التمسك بأطراف الموائد . وان أكل لقمته حامدا شاكرا ، ذهنه بلاأصابع، ويده غبية ، ولسانه ملجم ، لو أوقفته وراء الستار لما بصت عينه من خرم ، وأحدث آرائه هى آخر ماسمعه ، لا عجب أن عوضه المنان بصحة جسمانية مثل الحديد ، كانت تلعب معه وهما طفلان ، فكانت هى التى تركبه وتؤذيه وتضربه فلم يكن يغضب بل ينظر اليها باعجاب، رضاؤه عن نفسه وقف على رضائها هى عليه ، ثم لما كبرا فرقت الحياة بينهما وان كان يزورها أحيانا مع الأعياد ، هذا الموظف الصغير فى وزارة الأوقاف يعد نفسه من دلاديل الست ومحاسيبها . قالت فتحية فى سرها : ولم لا ؟ ان الله أرسله لى عند الحاجة ، سيكفينى مؤونة مشاوير كثيرة ثقيلة . وابتسمت فى وجهه . وخيل لهما لحظة أن الزمن تراجع للوراء الى حوش كبير

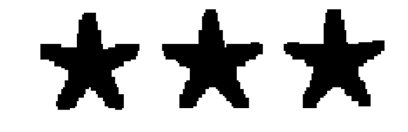
فى منزل قديم تلاحــق فيه صبية بضــفيرتين صــبيا بجلابية ٠

★★★

لم تقترب مدة العقد المؤقت من منتصفها حتى كانت فتحية قد أصبحت مسمار المكتب ٠ اعتادت أول الأمر أن تصل كل صباح فى موعدها ، منهكة لم تكمل زينتها ، كان الله فى عون ست مكافحة مثلها ، اذا كان اليوم هو صبيحة يوم الزيارة الأسبوعية بدأت أولا باذاعة نشرة أخبار صحة فؤاد ، هذه المرة حالته لم تتغير ، هذه المرة هو أحسن ، هذه المرة حالته تأخرت قليلا ، لامعنى لهذا التناقض الا أن الحالة مهببة ، ولعل هذه النشرة هى التى أغنت الزمــلاء ـ زمــلاءها هى الآن ! ـ عن الذهاب لزيارته ٠ فتحية تقــول لهم بالفم المليــان انهم قاموا بواجبهم وزيادة ، الدورة والمتمة على حضرات الاخوة والأقارب ، هل يتصور الزملاء أنها تذهب فلا تجد أحدا منهم ، ولا صريخ ابن يومين ، أين الأخ الشقيق ؟ أين الاخوة لأب ، أين الأخت لأم ؟ كل منهم فص ملح ذاب ، أما الأم فتأتى مرة وتمرض هى مــرة ، وحين تقابلها لاتكلمها ٠ لماذا ؟ هل قتلت لها قتيلا ؟ ثم لاتكاد فتحية تفرغ من هذا الكلام وتبدأ العمل حتى يدب فيها وفى

حجرتها كلها وقدة شديدة ، أوامر وتليفونات ودخول وخــروج • فهمت الشــغل بسرعة وأتقنته ، أصبحت معروفة فى الشركة كلها وفى عمــارة المكتب ، يعرفها البواب وعامل المصعد ، حتى الخواجة الساكن فى الدور الأعلى سأل عنها حين رآها فى المصعد ذات يوم تحمل فى يد ملفــا وفى يــد رغيف توست وأقــة موز ، قال له البواب : «واحدة ست مسكينة تجرى على عيالها ، برافو عليها !» • لم تعد فتحية تبالى بعبارة «ست مسكينة» التى لاحقتها منذ أن دخلت الشركة ، هى لاتضيق ولا تسر بها ، بل هى تضعها فى جيبها مفتاحا صنعه لها الآخرون قبل أن تصنعه هى لنفسها تستعين به على فتح الأبواب التى لاتستجيب للطرق الأول • هذه العبارة هى التى أعانتها على تحسين علاقتها مع أغلب موردى الشركة ، لم يتقدم أحد منهم ضدها بشكوى من مجهول ، لم يكن أقل نفع العمل لها أنها فقدت بدانتها ، وأصبحت تلبس المشد بســهولة ، كانت فى أول الأمــر ست بيت ثم موظفة ، العمل فى المكتب متأثر بحالتها فى البيت ، فأصبحت موظفة ثم ست بيت ، حالتها فى البيت متأثرة بظروف العمل فى المكتب ، وقليلا قليلا بدأت عنايتها بزينتها تزداد ، وحلت لها الدنيا وشعرت بشخصيتها

فى العمل تثبت وتسيطر ، سعادة كبيرة تخفيها فى قرارة نفسها ، بل بدأت من فرط الثقة تتدلع وتأتى للمكتب متأخرة ، ولكن الجميع وهم يلحظون عنايتها بأناقتها يشهدون أنها تلتزم الجد ، وأن سمعتها نقية . لقد عرفت كيف تحتفظ بكرامتهاوتعامل الزملاء معاملة الند للند لا شأن فيها للجنس ، انها ليست مغفلة ، قد انتبهت الى تيارات خفية تحت السطح ومبادىء مغازلات متسترة ، ولكنها عرفت كيف تقضى على هذا العبث كله ، انها وقد رتبت فى الظل الاحتياطى المجهول الذى لايخون ولايفضفض ليست فى عجلة من أمرها ، هى عاقلة متحكمة فى أعصابها لن تخطو الخطوة الا اذا وجدت نفسها فى آخر الطريق المسدود ، وستكون خطواتها بعدها قليلة مرسومة وعند أشد الحاجة ، فهى لاتريد اذا سنحت لها الفرصة فى العلالى أن تبدو فى صورة امرأة متهالكة تنهدم عند اللمسة الأولى ، لأنها تحب اذا آن الأوان أن تكون هى التى تجود وهى التى تقود .



ظنت فتحية بعد أن سالمتها الأيام أن نشرة الأخبار لم تتغير كثيرا وأن العقد سيتجدد بسهولة ، فاذا هى

تفاجأ فى آخر زيارة قبل نهاية المدة بطلب من مدير المستشفى ، ولما دخلت عليه أخبرها كأنه يزف اليها بشرى أن فؤاد دخل فى فترة هدوء من المتوقع أن تكون طويلة ، واحتمالات النكسة بعيدة وأنه بشىء من المسايسة فى البيت لاسبوع أو أسبوعين يستطيع أن يعود الى عمله .

اغبر وجهها ولكنها تمالكت نفسها وابتسمت وكادت تخطف يده لتقبلها ثم وقفت بين يديه مترددة معتذرة . ان كان في هذه الدنيا كلها من يفهمها فلن يكون الا هو . وقالت بسرعة كأنها أعدت الجواب منذ زمن طويل :

ـ انت سعادتك عارف انى موظفة ، وقد قررت الشركة أن ترسلنى فى جولة فى أوروبا للاشراف على جميع موردىطائراتها فى المطاراتالأجنبية ، وسأسافر فى الأسبوع القادم ، هذه هى فرصة العمر ، أعددت جواز السفر وكل التأشيرات ان أردت أحضرها لك ، فاعمل لى معروفا وأجل اخراج فؤاد شهرا واحدا ، ثم لاتنسى أننى أعيش وحدى فى البيت ، وأحب أن أكون مطمئنة كل الاطمئنان أن لايحدث لى أى خطر اذا خرج قبل الأوان وأصابته فى منتصف ليل نوبة من الهياج .

فأنا أعمل ، وأنا وحدانية ، وامرأة جار عليها الزمان ٠

نظر اليها مليا ، وذكر مقابلتها الأولى فاستدار وقال لها وهو يخرج من باب جانبى :

ـ حاضر ياستى فهمت ٠

★★★

ليست هذه أول كذبة فى الحياة تصبح حقيقة فى اليوم الذى تم فيه تجديد العقد قدمت فتحية الاقتراح وجرت وراءه ، وفى أقل من أسبوع صدرت الموافقة على جولتها فى أوروبا ، ونشرت الشركة فى الصحف بين اعلاناتها صورة لاحدى طائراتها ، وعلى السلم فتحية فى تايير أسود كلاسيكى تلوح بيدها وتبتسم لمودعين لايظهرون فى الصورة ٠ وكانت الرحلة الى أوروبا أول خطوة للعلالى ، وأيضا أول ثمرة لهذا العلالى ٠ اذ كان مدير الشركة مسافرا بالطائرة ذاتها ٠

الفراش الشاغر

الوالج

الوالج فى شارع الريحان من ناحية ميدان الامامين تمر يده الشمال بعد خطوات بدكان صغيرة قد لاتلحظه عيناه وهو ماض فى سبيله أمام صف من دكاكين فقيرة متلاصقة متشابهة تحاذى الرصيف المقشور الضيق فى استقامته ودورانه . فهذا الدكان مضيع هو واخوته فى عتمة غلالة من هواء رث ، نسجها عنكبوت مات فى وقت غابر فعشش فيها من بعده الأمن والرزق والنعاس ، والزمن المشلول . والزنبرك الذى يحرك الدمى من ورائها قد هرم . فالرؤوس محنية على الصدور ، والأجفان كالسقاطة تشد بحبل ، ثم تهوى والأيدى مترنحة ، وهى تنتقل بين تسلم الملاليم ومناولة الزبائن ، ونش الذباب عن الشرب من نز الشفاه ورشح الجفون ، ومن رقراق لزج جميل لونه ولمعانه يسيل من صماخ الأذن .

أما اذا رفع المار بهذا الدكان بصره قليلا فستستوقفه لافتة ينقبض لها قلبه ويشيح عنها بوجهه ويسرع ـ وقد يتعثر ـ فى مشيته وهو حائر يسأل : ما الذى حشر هذه المهنة اللعينة بين دكاكين تجارة مباركة تجد مديحها فى الكتاب والحديث ولاتأنف من مصافحة أصحابها ومؤاكلتهم ؟ انها فى هذه الجيرة غلط : دمل فى خد أسيل ، مومس بين حرائر ، مجذوم بين حريم أمير شرقى يسكر أيضا على اللبن الحليب من يد قواد شريف ٠

من حسن الحظ أن انقباض قلبه سيخفف منه اعجابه بنفسه حين يحسب أنه أول من يكتشف بذكائه أن اللافتة تدل على أنها كانت معلقة من قبل فوق دكان أفسح عرضا ، فهو قد لحظ أنها بسطت طرفا من جناحيها على الدكان المجاور ناحية اليمين والدكان المجاور ناحية اليسار ، وهذا تواضع منها لأن ظلها يعم الأرض كلها ، واللافتة مائلة قليلا الى الأمام ، مائلة كثيرا الى جنب ٠ انها توشك أن تهوى فى أية لحظة ، ومع ذلك فهى خالدة ٠

الجار الأيمن بقال بلدى ، فى مدخل دكانه عارضة من خشب أغبر محبب عليها أنجر باذنجان مخلل ٠ كل

باذنجانة أجهضت بذر أمعائها ، متفسخة بالية اهترأ لحمها . من أجل ذلك تتحلب لها أفواه الزبائن ، ان لهم صلة قرابة بالرخم والضبع .

الجار الأيسر صانع حقائب يعمل فى نفاية الجزار، ظهر هذه الحقيبة كان ظهر بقرة ، وبطن هذه الأخرى كان بطن ماعز . حقائب للفـراق والهجرة ستتوسد أرصفة المحطات ، وأرفف القطارات ، وتجوب الأرض كالأرواح الهائمة .

ومرت بالطريق عربة كارو ، تشـع بصيصا من رائحة جمار ذكر النخيل . هى كقفص دجاج بلا سقف، أو سياج تكتظ داخله نسوة فى ملابس سود ، تحت كل واحدة منهن بيضة ، الويل لهن ان لم تفقس ، فهن فى سباق مع حدأة لصة لاينقطع نهمها ولا دأبها على الترصد لفراريجهن واختطافها ، أما الحمـار فمحروم وصاحبه مقطوع الأنفـاس ومع ذلك لاتشـبع فراغة عينه .

وتلفت عابر السبيل للافتة مـرة أخـرى قبل أن تغيب عن نظره مكتوب عليها بالخط الثلث وبأحـرف بيض عريضة مشققة كظهر السلحفاة : «حانوتى عموم قسم الامامين» .

وترك صبى المعلم مدخل الدكان واتجه الى قاعة ، انه كهف مظلم تختنق فيه نظرات المارة ، ثم مالبث أن عاد حاملا على كتفه نعشا جديدا مشقوقا من صندوق وغطاء ، وعلقه بمسمار على درفة الدكان ، ثم جلس وشرع يسن أظافره على جلبابه المقلم .

★★★

تسكن قبالة الدكان منذ عهد بعيد أسرة قليلة العدد : أب وأم وولد واحد ، أول العنقود كان آخره ، لايعرف الجيران عنها شيئا كثيرا ، وأدركوا أنها أسرة تريد أن تعيش وراء ستر ، وفى اعتقادهم أن لا طلب للستر الا لاخفاء كمال فى السعادة أو فى الشقاء ، كلاهما وصمة دامغة يضاجعها الحياء . وقال البعض ان وراء الستر سعادة ، يحس بها ثم ترى رأى العين حين تفيض فى المواسم والأعياد ، فنور الفرح الذى يتدفق حينئذ من نوافذهم ليس كمثله نور فى الحى كله ، له جلجلة الضحك . وقال البعض ان وراء الستر شقاء ، ففى كل شهر مرة أو مرتين تقف أمام الباب سيارة مرهقة الروح والجسد . كحبلى اختنق داخلها جنينها ، غيرها يلد الحياة أما هى فتلد الموت ، أو ينزل من السيارة حارس ضخم يسيطر على رجل طويل نحيل

ممتقع الوجه زائغ البصر هائش الشعر دائم التربص، يمكر للحظة يسترد فيها حريته لينطلق ، يبحث عن عدو لئيم حطم روحه ووعيه ومنطقه وأبقى له لغة كمصاصة القصب هى التى يلوكها فى فمه لتفصح عنه ، والمصيبة أنه لايعرف من هو هذا العدو ، يتشبث بباب السيارة وباب البيت والحارس يدفعه ويعدل بالكف وجهه الى الأمام لئلا تنخلع رقبته ، ولكى يصون المارة من نظرات كطلقات الرصاص وسباب تخجل منه أحط المواخير .

وعند الضجة تنطبق نوافذ البيت كلها فى لحظة واحدة كأنما لم تجذبها يد ، بل تحركت من تلقاء ذاتها ، وبعد ساعة أو ساعتين ينزل الحارس يمضغ ويمسح شاربه وتلوذ بيده الأخرى يد رخصة رفيقة لطفل طويل نحيل وديع ، اذا احتل مقعده فى السيارة أخذ يتوجع بخفوت ، ويئن أنينا متقطعا مكتوما كأنه عائد من سفر طويل على ظهر دابة عرجاء فوجد فراشه المعهود ينتظره .

ويقول أنصار مذهب الشقاء فى زهو مكتشف السر وكاسب الرهان انه نجم الأسرة ورجلها الفالح وانه ذو ثراء وفير ، هو الذى يمنع أهل البيت من

الدعاء عليه بالموت ، ففى شريعتنا أن القاتل لايرث القتيل ولو قتله رحمة به • ويحدث مرارا بعد حركة السيارة أن يخرج صبى القهوة وفى يده جردل ممتلىء لتم عينه بماء الشيشة والجوزة ويقف على الرصيف وينفضه بجذبة عنيفة فيسقط رشاشه كأنه رعشة لذيذة فى جلد الأرض ، وتفوح رائحة حثالة النيكوتين فتتخدر عليها وترتاح أعصاب المارة من بشر وخيل بغال وحمير •

★★★

المسألة أبسط من ذلك ، فليس الستار مسدولا لاخفاء سعادة أو شقاء بل لسبب آخر لم تدركه براعة ظنون أصحاب المذاهب ، لأنه الأقرب للعقل والالصق بطبيعة الانسان ، والسحر فى الوهم لا فى الحقيقة ، هذا يبرق لتعشى تلك ، ان الأسرة تقترف عملا لا حاجة لغير مثله الى ستار اذا أريد لطقوسه ألا تفسد فيبطل مفعوله ، هو نفض اليدين من دنيا الناس ، هى عندهم عش زنابير ، لا أمن الا فى تجاهلها ، وقنبلة زمنية لابأس أن تطوف بها ولكن حذار من لمسها ، وزق مختوم له رائحة لذيذة مسكرة ، فاذا فضضته استحال هو وعقلك الى أبخرة هوج متطايرة ، العيش عندهم ليس

خطا عموديا يرتكز جديده على قديمه · ويتسع معه الأفق كلما علا ، ولا قـوس دوران فلك : شروق ثم سمت فانحدار فمغيب ؛ بل هو خط أفقي أبيض مستقيم ترسمه نقط سـود متشابهة ضـاع لونها من شـدة تلاحمها ، حتى طعامهم تمضغه لهم قبلهم المفارم ويد الهاون ، يأكلون اللحم والخضروات كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدون لذة مذاقها في ضياع طعم أجزائها، فالشيوع عندهم نجاة من مقابلة وجها لوجـه لنعمة مخلوعة العذار تقتضى منهم أن يخروا لها سجدا على الأرض ، ولايرفعوا عنها جباههم أبدا · انه وضـع متعب والتعب أوسع أبـواب الكفر ، فهم فى تنكرهم للنعمة أشد من غيرهم معرفة بقـدرها وامتنانا لها ، كفوا عن الاعطاء خشية نوال عـوض يغرقهم بجـدبه أو يمتصهم بفيضانه ، فأمنـوا التفجع وضرب الكف بالكف لدمامة العقوق من الآخـرين ، والتأوه لخسة أرواحهم هم أنفسـهم وهى تتهيب وهم خـور يرقبها ويسمرها كما يفعل الثعبان بالعصفور ، فانك قادر على أن تضمن برقبتك بقاءك دواما شحيحا جبانا ولكن لاتستطيع أن تضمن ولو بدانق أن تظل دائما فيجميع الأحوال كريما شجاعا ، وان خلوا الى نفوسهم سقطت

عن أيامهم أسماؤها وأصبح الانتباه لفروقها مرتبطا بدوران ظل أو ترديد صيحات الطيور المهاجرة ، فمن نفض يديه من دنيا الناس تزداد صلته بالطبيعة ، واختلطت الأعمار باختلاط الأيام ، فالزوج ينادى امرأته بيا أمى وهى تناديه بيا أبتى ويناديان ابنهما الوحيد بيا أخانا ، والابن ينادى أمه بياعروستى . أما مناداته لأبيه فقد نسى لفظها لأنه أقلع عن مناداته منذ أن بلغ الخامسة من عمره وأصبح لايتحدث اليه أو عنه فى حضرته، فاذا ولى لايشير اليه الا بضمير الغائب، بكلمة «هو» وحدها ، وكان يحدث مرارا وهما يتدابران وينصرف أحدهما عن الآخر أن يلتفت الأب وراءه فيجد ابنه ملتفتا اليه ، فى اللحظة ذاتها ، يحس الابن أنه يتلقى بنظرة متجسسة متوجسة ، ويحس الأب أنه يتلقى نظرة تبحث عن مشرط لامع مخبأ فى قبضة اليد ، وتنقلب النظرات المتبادلة الى ابتسامات الخجل والاعتذار ممن ينكشف لعبه ، ثم تتحول الابتسامات مرة أخرى الى نظرات تنطق بالفم والمحبة والاعزاز . يحدث هذا كله فى ومضة البرق مما يدل على أن الأسرة متماسكة ولها علامة مميزة هى أن أيدى

أفرادها كلهم رخصة ناعمة مهذبة من أثر كفهم جميعا عن الاعطاء ٠

★ ★ ★

عيش بلا برنامج ، لذلك لم يبـد أبواه دهشة أو اعتراضا أو أسفا حين عدل الابن عن الدراسة فى كلية التجارة بعد أن أمضى بها سـنة أورثته ــ وكان خـالى البال بريئـا من الاحن ــ كرها ممضـا للمال والجمع والطرح ، أصبح اذا تأفف بصق برقم ٠٠ ولا حين عدل عن دراسة الآداب بعد أن كرس لها سنة أخرى اذ وجد أن عيار عقله ولسانه قد انفلت وأخذ يشقشق بثرثرة فارغة ، ثم بقى فى الدار عاطلا سنة قلبت حياته رأسا على عقب ، ثم نفض يديه وترك سفينته تلقى مراسيها بكلية الحقوق وتوالى نجاحه وان جاء ترتيبه فى الذيل حتى لم يبق على تخرجه الا سنة واحدة ، استقر بهـا وهدأت نفسه فقد أراحه وأعجبه أن القانون نحا برقبته من شريعة الكون وربكتها وتناقضها وتسميتها للظلم أنه فى بعض الأحيان عدل ، ليس عنـدها حساب ختامى ، وحتى لو كان فبعد خراب العالم كله ، واصطنع القانون لنفسه منطقا مستقلا جميلا على الورق ، بارع التقسيم والتسلسل عاجل النفاذ ، كأنه هدم بناء الحياة واتخذ من

أنقاضها قوالب مرقومة أقام عليها صرحه : القـاضى لايحكم بعلمه حاشا وكلا ، بل من الورق ، فالورق أبين من الحقيقة ، الصدق عنده كالكذب مرفوض الا اذا دعمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ، الرذيلة عنده محددة لها مقام ، والفضيلة مبهمة ليس لها حساب ، يقضى بعقاب الزوج الخائن ولايقضى بمكافأة الزوج الذى يظل مخلصا بعد شهر العسل ·

ومع ذلك ففضيلة القـانون أنه رحم الانسـانية بتحويل عـالم الروح الى جـدل عقلى منطقى تزول فيه الفروق بين العالم والجاهل والمتطوع والمعـذور ، انه حذف القدر من قاموس الانسان ، ولما حذف كلمة القدر حذف كلمة الرحمة أيضا ، لابأس ، فهذا هو التسلسل المنطقى الذى أخـذ به القـانون نفسـه ، وان منطقا مسلسلا أفضل ـ مهما كثرت مظالمه ـ من شريعة عادلة بلا منطق مفهوم · وشيئا فشيئا أخـذ صاحبنا يفقد الاحساس بالفروق بين الفضيلة والرذيلة لاختلاف منطق شريعة الكون عن منطق القانون وأصبح كهذا الشحاذ الذى يتناول ولا يعطى ، يبتعد عن زحمة الحيـاة ليرقد على رصيف أمام مسـجد ويعرى قلبه ثم يهبه لضـوء

الشمس وأسراب القمل فيجـد فى اختلاط الدبيبين لذة تئن لها النفس ألما وتهتز طربا فى وقت واحد ٠

أصبح الفتى قعيد الدار بين الآداب والحقوق فكان من الطبيعى أن لا شىء يشفيه من تعطله الا عمل واحد هو من بين الأعمـال جميعها أبسـطها وأسهلها وأنبلها وأصدقها وأقربها للعقل : أى أن يعمل زوجا ، هو بكر ومع ذلك أصر على ألا يتزوج الا من ثيب ٠ وتولى هو بنفسه وبغير مداخلة من أبويه اختيـار المصـنع الذى سيهبه العمل فيتلقفه منه ٠ لم يراجع قائمـة الأقارب والجيران والمعـارف بل مـديده وهـو جالس فى بيته ووضعها كقسيس يمسح امبراطورا على رأس فتاةفقيرة وقال كلمة واحدة هى «هذه» شأن الأطفال فى متاجر اللعب ، حينئذ غمرت روحه سعادة لا حد لها اذ أحس أنه ارتد الى الطبيعة الأم وداس بقدميه فى طريقه اليها على كل التقاليد التى اخترعها الانسان للظفر بزوجة : مطاردة واقتناص الوحش للوحش ثم خطف ثم شراء ثم اثبات بطولة بعد نزال ثم غزل وسهر وتنهدات ، وكان يضحك فى سره أحيانا لأنه يفطن بغير علم الى أن سر شقاء المرأة فى عصرنا هذا أنها ترث كل جداتها وتريد من زوجها أن يلجأ فى الظفر بها الى كل هـذه الوسائل

مجتمعة ، وان زعمت أن الغــزل وحــده يكفى لأنهــا متحضرة وهذا كذب · فما له هو ووجع الدماغ ؟

تأتى هذه الفتاة الفقيرة لزيارتهم فى صحبة أمها وأبيها مســتأجر أطيان نجم العــائلة كلما حل مـوعد القسط الشــتوى أو الصــيفى · لاتزال تلبس الملس المصبوغ المخرخش ، وخفا لا حذاء · لاتكشف عن وجهها الا بمقدار ، منهدة فى قبضة الحياء ، اذا وجه لها أحد كلاما غاصت فى الارض ، ولكنه جمع كعبها الوردى الى الفتات الذى يراه من وجهها وحكم بأنها هى التى تصلح له : فتاة خام ساذجة ، عيون سيالة لاتقوى على توجيه النظر وجبهة لاتبرق بفكرة ، وجســد فى حالة شيوع تاهت فيه مفاتن الأعضاء ، وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وتهدل ضفائر مبتلة على جبينها وخديها ، انه سيعصره لها بأصابعه وشفتيه ويجد لسانه فى طعم رائحة الصابون ألذ خمر !

هو يعلم أنها تزوجت من أحــد أقربائها فى البلد وكان لغريم له ثأر عنده فلم يشــأ له غله وانتقامه أن يتركه يتمتع بعروسه ، وترصد له وهو عائد من الحقل وأفرغ فيه رصاص بندقية مخروطة شغل يد · وحمل لها جثة ممزقة وأخــذت تمسح جــراحه بمنديل تلوث

بالدم لثاني مرة في أسبوع واحد • فهي اذن في نظر الفتى عن الطلب ، سهلة ، تولى غيره فك عقدتها ودكها، كالطاجن يشتريه مستويا ناعما جاهزا ويترك لغيره تلويث أصابعه وخدشها وهو يطليه له بالزيت ، بل ان هذه الفتاة تفضل هذا الطاجن لأنها لاتزال ملطخة بالدم وان يك جديده من نزيف زوجها القتيل •

وراق للفتى ، لكي تتم له متعة نزوته ، أن يؤثث حجرة العرس التي أفردها لنفسه في دارهم على ذوق فلاحة من طبقة زوجته : حصيرة ترص عند حافتها الشباشب والقباقيب وسرير من الحديد له ملة من خشب وناموسية من حرير وردى وصندوق للملابس مزين بالأحمر والأخضر وطشت ودست للغسل • فلما أكمل الجهاز اذا بها تقرب فمها الى أذن أمها وتهمس لها بشيء ثم أدارت وجهها للجدار من شدة الخجل وأبقت يدها في يد أمها تشدها لتمنعها من الكلام في حضرتها • فلما انفرد الفتى بحماته أخبرته أن ابنتها همست لها : مادمت سأتزوج في العاصمة ومن رجل قد الدنيا فأحب على الأقل أن تكون ملة السرير من السلك الهزاز لا من الخشب •

على هذه الملة السلك لقي الفتى صدمة حياته ،

زلزلت كيانه فانهدمت أوهامه وبقى هو عاريا وسط أنقاضها يلعق حيرته ، ففى الليلة الأولى ذاتها انقلبت هذه الفتاة الخام الساذجة الى وحش ضار مفترس ، العيون المسبلة أبرقت كعيون الصقر المتحفز ، تنبعث منها فى جوف الليل نظرة متقدة كأنها وميض سيف أو ذوائب لهيب ، لو مرت بعود ثقاب لأشعلته ، نار لاتطفئها مياه الأنهار المقدسة كلها ، نظرة تلحس جسده كالمبرد ، والجبين الذى لا يلمع بفكرة أصبح مسطورا عليه ـ بدل القدر ـ أمر أداء صادر من محكمة مستعجلة لايقبل التأجيل أو الاستئناف ، الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت متورمة عن رعشة تلهث ، الفم يتلمظ ولا يستقر على هيئة واحدة : هو تارة فوهة بركان مستديرة ، وتارة بطن دوامة مكورة كالقمع ، وتارة مستطيل كشق الخنجر ، تقلصات متتابعة كأنما فى حلقها خطاف تجذبه يد بلا رحمة ، وانكشفت أسنان تلألأ جوعها فتطاير من حولها الظلام مذعورا ، والأعضاء التى كانت تزعم أنها فقدت فتنتها فى شيوع الجسد استرد كل منها حقه واغتصب لنفسه فتنة الجسد كله اشرأب ابهام القدم وطلب العلا وزادت الضراوة حدة لشدة التناقض

فقد بقى الكف منبسطا مستسلما واهيا ، والذراع رطبا والرضاب شهدا زلالا ، والنفس نفس طفل غرير ٠

ماذا يفعل ؟ انه سليل أسرة كفت عن الاعطـاء ، يريد كأسا ينهلها جرعة واحدة دون أن تلتصق بشفته كدودة العلق ، طلب المتعة لنفسه فدهمته قبل المتعـة مسؤولية ٠٠ انه لايقبل الا مسؤولية يتطوع بها بارادته وحريته ويكره أقل مسؤولية تفرض عليه ، انها جزية استعباد وغـزو يهتك الستر الذى تتزين من ورائه كرامته ، هى كاملة خالصة له يرضى بها كما هى مابقيت فى خلوتها ، لا حق لأحد غيره أن يتفحصها ، يكبر عليه أن يوضع فى الميزان حتى ولو كانت فى الكفة الأخرى خردلة ، فلتقطع كل يد تزعم أن لها الحق ـ وبغير طلب منه ـ أن تعريه وتمتحنه وتزنه ٠

ومع ايمانه هذا لم يستطع فى ذهوله أن يصل الى قرار ، وكانت هذه الفتاة الخام الساذجة أسبق منه اليه، صبرت ليلة ثانيـة ثم فى الثـالثة رفسـته بقـدمها وقالت له :

ـ نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد ، اننى أبول على نقودك وأناقتك وكلامك الحلو ٠

وأضافت تتكلم بلسان القدر :

ـ ابحث لك عن مومياء ملطخة بالأبيض والأسود والأحمر ، فبلدكم مملوء بآلاف منها .

وقامت تجمع خلقاتها ولأول مرة انتبه الفتى رغم ذهوله الى جمال عرنين أشم ، ورقبة متطاولة ، وساقين مشدودتين تحسدها عليهما أنبل فرس عربية أصيلة .

وفي الصباح كانت هي التي تجر أمها من يدها ، ومشت متسحبة كأنما تهرب من أعداء غلبهم الكرى ونومهم خفيف ، ومع ذلك كان الملس الأسود المصبوغ المخرخش مائلا برأسه الى الأمام قليلا كأنما تستعد للجرى اذا جاوزت الباب ، لم يطل زواجها الثانى هو أيضا الا أقل من أسبوع ، ولما رأت أمها في عينيها وميضا حسبته بقايا دموع قالت لها :

ـ لاتحزنى عليه ، يعوضك الله خيرا منه ، هذه قسمتك .

أجابتها في سرها :

ـ ما أطيبك وأغفلك يامه . لو بكيت فلن يكون بكائى الا حزنا مجددا على زوجى الأول .

لم يجد الفتى بعدها لمتعته اشباعا ولا لجرحه لسانا يلعقه الا فى أحضان تاجرات الهوى ، ليس لواحدة منهن حق عليه ، فلا مسؤولية عليه قبلها ، انه يريد أن يشترى بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء ، هذه طريقة بدائية طواها الزمن والتمدن ٠ كان فى أول الأمر لايفرق بين واحدة وأخرى ٠ ثم بدأ يتأنق فيبحث وينقب عن البائعة التى تجذب المشترين لبضاعتها جذب قطعة سكر لأسراب الذباب ، تروقه كلما زاد عددهم وضاع هو فى الزحام بينهم ، كأن وجهه أصبح قناعا ، ومع ذلك لايجد بعد جنته المنشودة ، فلايزال يتوهم حتى فى أكثرهن رواجا وانشغالا اشاحة وجه أولوية خشم أو دفعة يد ، تفسد عليه طمأنينته . وأصبح غاية مايتمنى أن يجد من جمد وجهها فلا يتحرك ولو اصطبغ بلون الشمع ، وانعقد خشمها فى قالب ثابت ولو تصلبت الشفتان كالخشب ، ومن شلت يدها ولو أصبحت باردة كالثلج ٠٠ فأين يجدها ؟

★★★

لا أحد يدرى ماذا كان يكون مصيره لو لم يدهمه مرض غريب أقعده فى الفراش زمنا طويلا ، قال الاطباء انه ميكروب هين لايخلو منه سليم ، تلتهمه

الكريات الحمراء بسهولة وبغير مساعدة ، أما هو فجسده عاجز عن المقاومة لا لعلة فيه بل لفقدان ارادته ورغبته في المقاومة ، فكل دواء جهد ضـائع • ان جسـمه هو تجسيد التأرجح على الحبل بين أريج الحياة ونتن الفساد، فكأنه جثة لاتحركها روح ، بل زنبرك أو مخلوق يتنفس قد أكلت الغرغرينة من تحت الجلد كل لحمه وما أبقت الا لمة عينيه ، ونصح الأطباء أباه أن يعرضه على طبيب نفساني •

لدغته هذه الكلمة فما كاد الأطباء يغادرون البيت حتى قام من فراشه ودخل الحمام ليميط عنه الأذى ويودع ماضيه ويغتسل ويتطهر ويتشهد ، ثم خرج وقد نطق وجهه الندى بانصياع رضى وطيبـة حلوة ، وتناسقت حركات أعضائه وشملها هدوء عجيب أصبح بعده متهما بالبلادة ، ولكنه وجده عز الأناقة ، فزاد اعتناؤه بأظافره وربطة عنقه وانسجام هندامه ، أصبح يتحرك بخشوع فيه دلال مخنث ، ويتكلم بنبرات خفيضة فيهـا غنة ، وبدت في عينيه عـذوبة كأنما كحلهما بعسل ، ولكن قامته الطويلة انحنت قليلا الى الأمام فما ضره ذلك بل أضفى عليه جوا من الوقار • وأبان رأسه وذكاءه أكبر من حقيقتهما ، وان اتهمه البعض بسبب هذا الانحناء

أن له نظرات ماكرة فاحصة من تحت لتحت وهـو علم الله من هذه التهمة براء ٠

وهكذا انتهت هذه الفترة من عمره بدخوله كلية الحقوق فانتبه له زملاؤه لاناقته ووقاره وتحلقوا حوله لايدرون أى شيء يجذبهم اليه ، أهى أظافره أم أصابعه الرخصة أم هذا العسل الذى يسيل من عينيه وهـذه الغنة فى حديثه ، ولكن أحدا منهم لم تتقدم صلته به الى درجة الصداقة التى يفصل رباطهـا قلبين عن وسط الزحام ، ولكنه لم يشعر بالوحدة بل شـعر بالراحة ، وأضاف على تعسيلة نظـرته ابتسـامة حلوة ، أصبح زملاؤه يضربون به المثـل فى الطيبة ونبل الأخـلاق ، ويقولون هكذا يكون ابن الناس الأكابر ٠

★★★

لم يكن قد بقى على امتحان الليسانس الا أقل من سنة ، وطلع على الفتى يوم من أيام الخريف استكان فيه النيل بعد هيجانه ، وانقلبـثوب عنابه المنحدر من الجبال البعيدة الى سمرة وطينة داكنة متموجة كجلد السمك ، فرغ من لقاح الأرض ودخل جحره لينعس فيه طـول الشتاء ٠ ولمـا فقـد فحـولته أصبح لاشىء مثله يوحى بالقشعريرة وظلمة الأعماق والثقل العظيم ، وتزينت

الحقول بعد جفافها وعريها وشقوقها بوشاح من النوار تجود برحيقه على النحل والحيوان ، ومن خلال النافذة رأى الفتى وهو راقد فى فراشه سماء لازوردية تتنفس بنسيم رطب يختنق فيه الخبث ورتلا من سحب بكر مجلوة ممشطة تمازح أهل الأرض بتقليد كاريكاتورى لبعض مشاهدهم ، وكأن يدا خفية صبت على الكون فيضا من المرح والسعادة والصفاء ، ومن طائر أسود عريض الجناحين وأطلق صيحة وهو يغتسل فى الضوء ، هذه هى السقساقة التى تبشر صيحتها كما تقول أمه بقدوم مسافر ، ودامت مدى عمر هذه الصيحة لحظة انهدت فيها عن الانسان قيودهوأغلاله وعبوديته ومخاوفه وغيومه وأوهامه ودنسه وانقلب طاهرا بريئا مالكا لحرية مطلقة لا حد لها ، ليس لها من كفء الا حرية ملاك أو شيطان ، وهبطت هذه الحرية الى قلب الفتى فزلزلته قليلا ، ونعى عليها عنفوانها واباءها أن تفصل على قد القزم أو من هو من الملاك والشيطان بين بين ، اذن هو فى غنى عنها ، وأدار وجهه للجدار فملأه حتى استوعبه ملل فظيع أحس معه فى حلقه مرارة العلقم ، أصبح هو الذى يجرى فى عروقه بدل الدم ، وينضح به

جسده بدل العرق ، وتفتل منه أهدابه ، ويصاغ الوسخ بين أصابع قدميه ٠

تأخر فى الخروج ذلك اليوم على خلاف عادته ، ولما جاوز الباب وقعت نظرته على الدكان الصغير المواجه لبيتهم ـ وكان مغلقا شهورا غير قليلة ـ فرآه مفتوحا وشاهد رجلا على سلم يعلق فوقه لافتة «حانوتى عموم قسم الامامين» فانقبض قلبه ، هل هو محض صدفة أن جمع الزمن فى صباح واحد بين قدوم الملل وقدوم خادم الموت ؟ هل هذا أو ذاك هو المسافر الذى بشرت السقساقة بقدومه ؟ أم أن الحوادث مرتبة من قبل بنية مبيتة ولغرض مرسوم ؟

رأى صبى المعلم ـ هكذا حكم ـ يتعجل الرجل الواقف على السلم حتى جعله يخطىء وسط الحبل وهو يربطه الى المسمار ٠ وماكاد الرجل ينزل عن السلم حتى آتى صبى المعلم بالنعش وعلقه على درفة الباب ، والتفت الى العين التى أحس أنها ترقبه وتلاقت النظرتان ، حينئذ أمكن لصورة صبى المعلم أن ترتسم فى ذهن الفتى ناطقة جلية مفصولة عن الكون ، كأنما سلطت عليه أنوار كاشفة من ثقب مرسوم على هيئته ، رأى شابا مدكوك الجسم ككيس قطن ، قصير القامة

والذراع ، ضخم اليد ضيق الجبهة والعينين · نظرته ثاقبة لها لمعان ، حبة ترتره يعكس بياضها الضوء فى أشعة حمراء ملتهبة فيها مكر وحنق وعكارة دم فاسد وجوع الوحش ، لو كان مصمما على قتل غريم في مرمى بصره لكانت هذه هي نظـرته ، يعلم الفتي أنه رأى صورته من قبل ·· ولكن أين ؟ لايدرى ، وأخيرا هدته ذاكرته : انه رأى صورته في كتاب قرأه عن نظرية دارون : هذه النظرة لها أيضا شبه بنظرة نجم العائلة قبيـل أن كان يحـل موعـد شـم الكوكايين أو حقن الأفيون ·

وقبل أن يشيح بوجهـه رأى الصـبى يبتسم له ويرفع يده الى رأسه بتحية وسلام ، فمضى وهو يعلم أنه لابد عائد اليه ·

★★★

وتوثقت عرى الصـداقة بين الاثنين وأصبح من عادة الفتى أن يمضى أمسياته فى صحبة المعلم أمام الدكان · كان أول الأمـر ينزل اليه مـرتديا بذلته وحذاءه ، ثم تركهما ولم يجد بأسا من أن ينزل اليه مرتديا جلبابه وشبشبه وكان حديث صبى المعلم عن

الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله · وقال للفتى ذات يوم :

ـ مادمت تسمعني بشغف وتسألنى عن كل شيء بلهفة ، فلماذا لاتأتى معى بنفسك في أول طلب ؟سأقول انك من صبيان المحل ، ولن يكشفك أحد ·

قبل عرضه من شدة ملله وذهب · لم يكن قد رأى قط من قبل جثة ميت ، ودخلا حارة ضيقة موحلة واقتربا من بيت يخيم عليه السكون فلما لمحهما سكانه اشتعل بالصراخ والعويل واللطم ودبدبة أقدام على السقف كما تفعل المريضة فى الزار اذا سمعت دقتها ، انخلع قلبه أول الأمر وكاد يضع كفيه على أذنيه ثم وجد نفسه يشق جموعا من صبية يحتفلون بالمأتم فى فرح ، فهذا التناقض بين الأصوات ووجوههم هدأ من روعه · وصعدا سلما ضيقا أخذ صبى المعلم يقيسه بنظرته ليعرف هل يسع النعش أو يضيق به ، ودخلا الشقة فاشتعل الصراخ والنحيب والدبدبة مرة أخرى ، ومع ذلك لقطت أذنه وسط الضجة وش وابور الغاز ، فعلم أنهم لم ينسوا غلى ماء الغسل ، أحاطت به نسوة متشحات بالسواد دامعات العين ، ومع ذلك خيل اليه أنهن يستقبلنه استقبالهن

لأحد رجال الاسعاف ، بل أخذت عجوز تربت على ظهره وتقول :

ـ يالله يالله .. شوف شغلك ياابنى ، ربنا يفتح عليك .

حينئذ أدرك سر اعتزاز أرباب هذه المهنة بعملهم ورضائهم عن أنفسهم ، وجره صبى المعلم من يده الى حجرة ترقد فيها جثة الميت على حشية فوق الأرض وطلب منه مساعدته فى حملها الى الحمام حيث وضعت طاولة الغسل وصفيحة الماء فوق الوابور وأعد الكوز والطاسة والليفة والصابونة ، ولكن نفرا من أهل البيت أبوا أن تمس جثة عزيزهم يد غريبة الا حين لا مفر . فحملوها هم أنفسهم الى الطاولة ودفع صبى الحانوتى بهم خارج الحمام ورضى أن يبقى منهم شيخ يتمتم بآيات من سورة «يس» فعمل الحانوتى لايتم الا بحضور شاهد .

وفى حركة يد الفطائرى وهى تقذف الرقاقة فى الهواء جذب صبى الحانوتى الغطاء الأبيض عن الجثة وخيل للفتى أنه جناح طائر خرافى يتخبط من فوقه وحواليه يريد أن يلمسه ، ولما زال الستر وقف لأول مرة وجها لوجه أمام ميت .

شيء خارج عن تقسيم الكائنات الى ممالك ثلاث ، يجبرك أن تعيد تقسيمها من جديد الى مملكتين لا ثالث لهما : جثة ولا جثة ، شيء جامد وهو من لحم طرى ، مصنوع على هيئة انسان وليس بانسان ، ولا حيوان ولا جماد ، ولكن الذى لمس قلبه أنه حين تأمله لم يدر هل يرى أمامه استسلاما بلغ حد التعذب به أم عذابا بلغ مداه فذاب فى استسلام ؟

هل الجثة صرخة مشلولة أم صدى تسبيح ؟!

هل هى تهليل معناه لبيك ياحبيبى ؟ أم أنين أخرس معناه كفى ياأنت يارب ؟!

لا هذا ولا ذاك كله ، انما هى لاشيء فحسب ، وهذا الشيء الذى هو لاشيء له صورة بنى آدم ، ولكنه لايشيح بوجهه ولا يلوى خشمه ولا يدفع بيده ٠

وزالت الرهبة من قلب الفتى وأقبل يغسل الجثة برفق وحنان ضاق بهما صبى الحانوتى ذرعا فصرخ فيه :

ـ شهل ، شهل قبل أن يخفوا عنا اللحاف ٠

★★★

وأصبح بعد ذلك من عادته أن ينزل للدكان كل يوم

بالجلابية والشبشب ، يصر على أن يصحب صبى الحانوتى فى كل طلب ، وان يكون أسبق الاثنين جريا اليه • كل يوم يمضى بلا جثة هو عنده يوم ماسخ ، انه يعمل بلذة الهواة المفتونين بفنهم ، تريد يداه أن تقلب البضاعة كلها ، كل الجثث متشابهة عند النظرة الأولى ولكن عند المحب المتأمل تختلف •

هل اليد مبسوطة أم مقبوضة ، الركبتان مكسورتان أم متخشبتان مرفوعتان الى الصدر كساقى الطفل الوليد، صبى الحانوتى يضغط عليهما بكل قوته لتدخل الجثة فى النعش ، يتمنى أحيانا أن يكون معه مطرقة أو منشار • عزم ثقيل كالرصاص ، وعملاق خفيف كالريشة ، جثة لم يبق منها الا جلد بال على عظم نخر ، وأخرى بالون ينتفخ ، ووجه متشنج فى رعب ووجه مستريح كأنه راقد فى سبات لذيذ •

وأدرك صبى الحانوتى أن الفتى لايستطيع فراقه • ورأى ابتسامته تزداد رقة ووداعة ، ونظرته تمسيلا ، وجسده ارتخاء ، فأخذ الصبى اذا جلس اليه الفتى التصق به ، ووضع ذراعه فوق كتفه ، وهبط به الى خصره ، لايكلمه الا بوضع الفم على الأذن ليهمس له

له بكلام • ولما ظن أن الطبخة قد نضجت وسوس له ذات يوم :

ـ سلم نفسك الى ان كنت حائـرا بها ، لاتتدلل ولاتخف فداخل الدكان ظلام فيه نعش كبير يسعنا نحن الاثنين •

فكان الفتى ينحى عنـه الثعبان الأصلع والبخـر ولكن لايغضب ولايتأفف لأن ذهنه سـارح فى ملكوت القبور •

★★★

لجأ صبى الحانوتى الى حيلة تعلمها من أشباهه ، فما كاد الفتى يجلس اليه ذلك اليوم حتى بقى بعيدا عنـه كأنما انقطع أمله أو ثاب لرشده وانصرفت عنايته عنه الى الاستعبار وذم الزمان والتحسر على الماضى ، وحين احس أن الفتى قد تخدر قطع حديثه وقال كأنه تذكر فجأة خبرا جليلا •

ـ أتعلم ! أخبرتنا المعلمة زميلتنا أنها كسبت فى هذا الصباح المبارك أكبر مبلغ دخل يدها حتى اليوم وربما حتى آخر عمرها ، دعيت لغسل عروس من أسرة ثـرية كان لم يبق على زفافها الا ليلة واحـدة ، الثوب

الأبيض جاهز معلق وجاءتها البلانة ودخلت بها الحمام فما كادت تغسلها وتقوم من الحوض وتصب فوقها زجاجة عطر حتى وضعت يدها على قلبها وتأوهت ثم أسلمت الروح • شيعت جنازتها بالموسيقى ولم يكتف أهلها بنثر الحناء على تراب القبر بل أصروا أن يغطى ثوب الزفاف جسدها وأن تهال عليه باقات من الياسمين الزفر •

عروس ، فى مقتبل العمر مغسولة مرتين راقدة فى ثوب الزفاف فوقها الزهور والليلة أول الشهر -

قال له الفتى بصوت محشرج :

ـ بيضاء أم سمراء ؟

فأجابه :

ـ سمراء ، لعلها من الصعيد •

ولما سمع هذه الكلمة انهد وأمسك بتلابيب صبى الحانوتى وهو يتوسل اليه بصوت مبحوح :

ـ دلنى على قبرها •

فهمس له :

بشرط أن تقبل ، بشرط أن ترضى •

وتسلل فى جوف الظلام شبحان : وحش مفترس يهضم الزلط وروح تحطمت وتعفنت وغابت عنها رحمة الله ٠

وعلى الصبح وردت لأهل البيت رسالة من المستشفى تقول أن نجم الأسرة قد هوى بالليل ، وأن فراشه أصبح شاغرا ينتظر نزيلا جديدا ٠

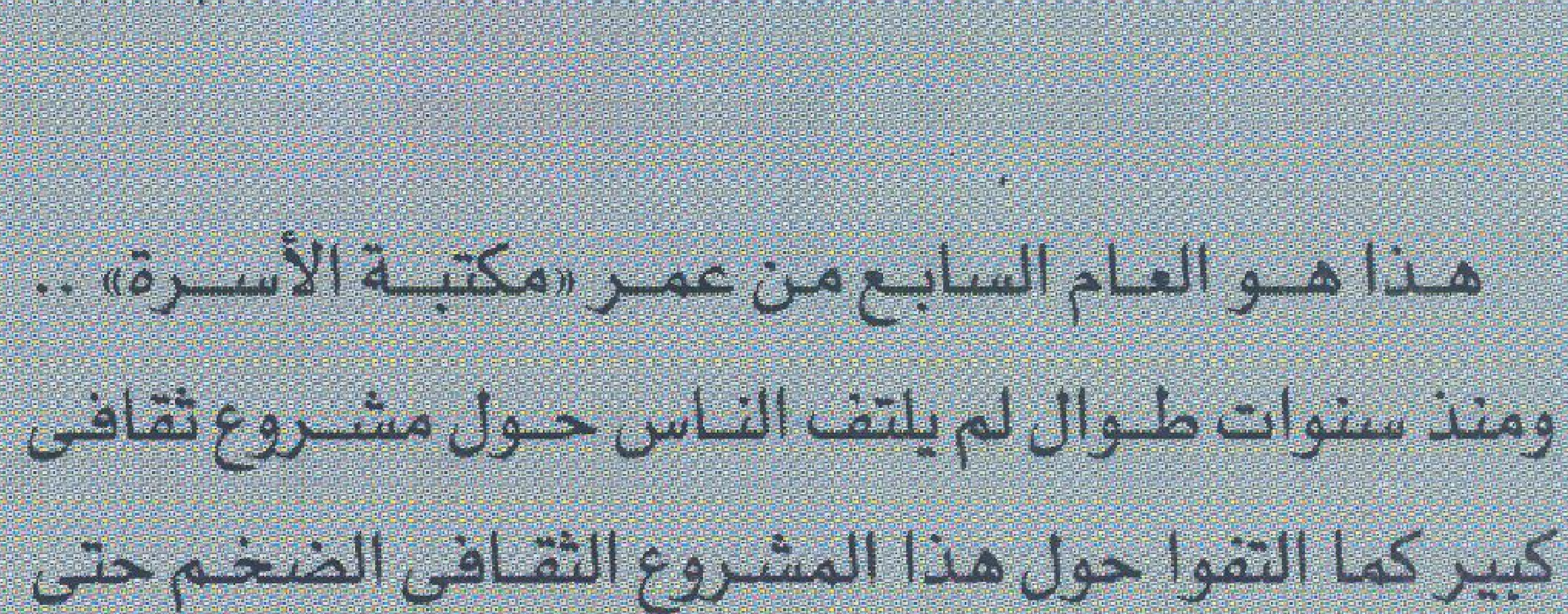
فهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٢٠٩٤/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6882 - 3





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» ..
ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب: وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها: فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



